العدد الرابع من السنة الرابعة — ربيع الأول سنة ١٣٦٢ — أبريل سنة ١٩٤٣

مجلة
الشؤون الاجتماعية

تصدرها شهريا وزارة الشؤون الاجتماعية

مدير التحرير : حسن الشريف : تليفون ٨٥٣١٢

القاهرة
طبعت بالمطبعة الأميرية ببولاق
١٩٤٣

فهرس العدد

صفحة

بن الصغيرة	أنطون الجميل بك	٣
هل نحن شعب قذر		١٣
كيف ينبغي أن يوجه العلم والعلماء	الدكتور علي مصطفى مشرفة بك	١٩
صيدة الموسم		٣٠
الإجرام في مصر	محمد البابلي بك	٣٤
أثر القصة في تربية الشعب	الأستاذ محمود تيمور بك	٤٥
أبطالنا المنسيون	الأستاذ سيد قطب	٤٩
في تكايا الدراويش	الأستاذ محمد عبد الكريم	٥٣
كيف نحرر من غرائز الشر ؟	الكاتبة زينب محمد حسين	٥٩
الثقافة الغذائية	الأستاذ س . ن	٦٥
المرأة مدرة التدخين		٦٨
ملاحظات عابرة		٧١
الوطن (تمثيلية اجتماعية)		٧٤

العيوب الصغيرة

لحضرة صاحب العزة الأستاذ أنطون الجميل بك رئيس تحرير "الاهرام" وعضو مجلس الشيوخ	ألقيت هذه المحاضرة النفيسة فى جامعة فؤاد الاول بدعوة من نقابة خريجى الجامعة

تفضلت نقابة خريجى الجامعة فدعتنى إلى الاشتراك بمحاضرة فى موسمها الثقافى. ثم طلبت إلىّ فى آب من مجلس إدارتها أن أحدد موضوع حديثى ، وقد جاء فى هذا الكتاب أن الغرض من إقامة هذا الموسم هو " المساهمة فى النهضة الثقافية والدعوة الإصلاحية ، رغبة فى بث الروح الوطنى الشاب ، و إشاعة الفكر العالى ، إجلاء للمثل العليا ، وتوجيها للشباب نحو رسالته السامية " .

رسالة الشباب السامية ؟ . . وهل للشباب رسالة أسمى من السعى وراء الكمال ؟

المثل العليا ؟ . . وهل من مثل أعلى يتطلع اليه شبابنا النجباء أشرف من استكمال الفضائل فى الفرد والمجموع .

الروح الوطنى الشاب ؟ . . وهل من وطنية أصدق وأنجع من التغلب على النقائص والعيوب و إن كانت صغيرة ؟ نص دستورنا على أن " جميع السلطات مصدرها الأمة " ، وهذا ما يجب أن يكون ، وهذا ما هو كائن فى كل أمة راقية ، وهو لا شك حق الأمم الناضجة ومفخرة البلدان الديمقراطية . ولكن هذه المفخرة وذلك الحق يقابلهما واجبات ومسئوليات ، فلابد من أن يتحلى أفراد الأمة بالفضائل التى تؤهلهم لأن يكونوا مصدر السلطات . وهذا واجب الرجال المثقفين تثقيفا عاليا قبل الذين لم ينالوا من الثقافة إلا طفاوات يسيرة .

هذا ما جال بخاطرى عند ما تلقيت كتاب هذه النقابة الناهضة وعند ما تحدث إلىّ بعض أفرادها عن أغراضها . فذكرت حينئذ أنى دعيت منذ مدة إلى الخطابة فى أحد المعاهد العلمية حيث جعلت مدار خطابى على : "الفضائل الصغيرة" . ثم رأيت أنى لن أستوفى الموضوع إلا إذا تناولت بالبحث : "العيوب الصغيرة" وصرت من ذلك اليوم أرقب الفرصة المناسبة لطرق هذا الموضوع إلى أن دعيت إلى المساهمة فى هذا " الموسم الثقافى " فرأيتها الفرصة الموانية .

وما هى " الثقافة " التى أحسنتم ، ياإخوانى ، إذ نسبتم اليها موسمكم الموفق ؟

أنها بمعناها المجازى — كما تعرفون — تهذيب الولد وتأديبه ، وبمعناها الحقيقى تسوية الرمح وتقويمه . أولستم يافتيان الأمة المثقفين رماحها المشرعة وسيوفها الماضية ؟ ألا ينبغى أن تكون هـذه الرماح والسيوف دائما أبدا ماضية الحد ، صقيلة النصل ، سليمة من كل شائبة .

وأذكر أيضا أننى قلت فى محاضرتى عن " الفضائل الصغيرة " ما خلاصته أن ظروف الحياة لا تهيئ لكل إنسان مزاولة الفضائل الكبيرة ليكون فى وفاء السموءل ، وعدل ابن الخطاب ، وشهامة صلاح الدين . ولكن ظروف الحياة تهيئ دائما ، ولكل منا ، وفى كل يوم من أيام حياته ، أن يكون وفيا لأصدقائه ، عادلا فى أحكامه ، أمينا فى أعماله . .

أيها السادة : إن شأننا لكذلك بين الكبائر والصغائر من العيوب والنقائص . ولا ريب فى أن بحث عيوبنا الصغيرة يعود علينا بفائدة أقرب وأشمل من بحث الكبيرة منهـا ، وإن كان من الصعب العسير أن نقيم حدا فاصلا بين هذه وتلك ، فنجزم متى تكون من العيوب البسيطة العرضية ، ومتى تصبح من الفواحش وكبائر الاثم .

وفى الواقع ليس بيننا من يقتل أو يسرق أو يخون وطنـه بالمعنى الحقيقى للقتل والسرقة والخيانة . أما بالمعنى المجازى فكم بيننا من قتلة ولصوص وخونة . فقد نقتل ، وقد نسرق ، وقد نخون ، كل يوم ، باللسان ، بل بالإشارة ، بل بالقلب والفكر . وربما كان أحيانا فعل هذه العيوب الصغيرة بعيد النتائج خطير العواقب ، كفعل الكبائر . ومع ذلك قد اعتدنا ، تساهلا مع أنفسنا ، أن نسمى هذه العيوب شهوات أو هفوات أو هنات هينات ، وإن هى فى الغالب إلا مآثم وجرائم وجنايات .

يفتن الإنسان فى اختلاق الأعذار والمبررات لعيوبه ، فيقول وقد لبس لبوس الأتقياء المتواضعين " إن الكمال لله ! " وهـذا صحيح . ولكن الله يأمرنا بأن نسعى إلى الكمال ، بل إن الحياة المثلى هى من أولها إلى آخرها سعى متواصل وتطلع دائم إلى هذا الكمال ، فالانسان كما قال ديكارت " كائن ناقص يجب أن يتطلع دائما إلى ما هو أكمل وأفضل وأسمى " .

الكمال لله وحده ، قول حق يراد به باطل ، لأننا نقوله على سبيل التواضع الكاذب الذى يستر نوعا من الكبرياء الخبيئة ، فان كثيرين يشكون مما كتب الله لهم فى هذه الحياة من رزق وحظ وتوفيق ، ولكن الجميع يحمدون الله ويشكرونه على ما أغدق عليهم من فطنة وذكاء وكمال .

ومن مظاهر هـذا التواضع التقليدى أن كل مؤلف فى القرن المـاضى كان يرى لزاما عليه ، مقدمة كتابة ، أن يخاطب القارئ بقول الشاعر :

إن تجد عيبا فسـد الخـللا ‏ ‏ ‏ جل من لا عيب فيـه وعلا

نعم إن الاعتراف بعيوبنا تواضع ، ومكاشفة أصدقائنا بها ثقة واستنجاد ، ولكن إعلانها على الناس كبرياء .

فالواجب إذن على العاقل أن يخفى على نفسه ليصلح عيوبها ونقائصها ، لا ليحاول أن يسدل عليها ستارا شفافا من التواضع المهلهل ، وهو يعتقد واهما أنه بذلك يحجبها عن عيون الناس ، أو أنه يدفعهم على الأقل إلى اغتفارها له .

أما الرجل الذى يفحص نفسه ولا يجد فيها عيبا فهو من غير ريب من الوجهة الأدبية فى حالة مرضية .

حكى عن المثال الدنمركى " ثور والدسن " أن أحد أصدقائه دخل عليه يوما فى ممثله ، فوجده يبكى و ينتحب أمام آخر تمثال خرج من بين يديه ، فلما سأله الصديق عن سبب بكائه قال : " إنى أحدق فى هذا التمثال منذ ساعة ولا أجد فيه عيبا ، وهذا دليل قاطع على خمول تفكيرى وخمود قريحتى ... "

أيها السادة : ما أبعد البون بين هذا الفنان العبقرى والرجل الذى يتملكه الغرور حتى لا يرى عيوبه فيخال نفسه فى أوج الكمال ، وما الغرور سوى طابع النفوس الضعيفة الفقيرة إلى الفضائل الصحيحة ، وقد يدرج بين العيوب الصغيرة ولكنه كسائر العيوب الصغيرة كثير العواقب الخطيرة .

الشاب المغرور يكفيه فى مطلع حياته أن يصعد إلى خشبة مسرح الحياة لكى يتوهم أنه الممثل الأول . والموظف المغرور بمنصبه يدل على أنه أقل من هذا المنصب . والغنى المغرور بملبسه وبمركبته إنما يرجع كل فضل فيه إلى خائط الثياب وسائق السيارة .

إذا أردتم أن تعرفوا حقيقة امرئ ، زوّدوه بسلطة واسعة ، أو انظروا اليه ، وقد أقبلت الدنيا عليه ، كيف يشمخ بأنفه ، و يصعر خده و يمشى فى الأرض مرحا ، وفاته أن حديث النعمة إذا نسى أصله ذكراه ، و إذا ذكره نسيناه .

والغرور يولد فى صدر صاحبه الخيلاء والاعجاب بالنفس ، ومن يعجب بنفسه لا يعجب أحدا ، فلا يلبث أن يحمله الغرور على استجداء المديح ، فى حين أنه يجب أن نستحق المديح ونهرب منه ، قال أبو تمام :

متبذل فى النوم وهو مبجل متواضع فى الحى وهو معظم

فاذا شئت أن يقول الناس فيك خيرا فلا تقله أنت ، ولكن المغرور المعجب بنفسه يجعل جميع ما قد يكون فيه من صفات ومزايا عرضة للبحث والتمحيص ، لأن الناس يأبون

عليه أن يكون فيه مع الغرور أى صفة أو فضل ، فهو كالطاووس ينفش ريش ذيله حتى يكاد يجعل منه تاجا ، ولكنه يكشف عن أقبح ما فيه ، ولله در مهيار حيث يقول :

يطلب المدح لكى يفضحه وهو قبل المدح مستور العيوب

وهذا العيب فى الإنسان يولد عيبا آخر فى من حوله ، وهو الملق أو التزلف أو المدح الكاذب ، وما المدح الكاذب كما قال لاروشفوكو "سوى نقد زائف لا يروجه إلا غرورنا" ، ولقد صدق من قال "إن المدح الكاذب يشبه ظلك : يمتد حينا فتبدو طويلا ، وينقلص حينا فتبدو صغيرا ، ولكنه فى الحقيقة لا يزيد قامتك طولا ولا قصرا".

على أنه ليس من الغرور فى شىء أن يقدر المرء نفسه حق قدرها فيحتفظ بكرامتها ويضن بمنزلتها ، وإذا كانت كثرة الإعجاب بالنفس تخافة فان قلته ضعف ووهن ، فليس من وسيلة إلى أن تصبح حقيرا أقرب من أن تخال نفسك حقيرا .

وليس من الغرور فى شىء أيضا أن نغتبط باحترام أهل الفضل لنا وثنائهم علينا ، فإن من لا يكترث بمثل هذا الثناء وذلك الاحترام كذاب فى تواضعه ، خبيث فى زهده ، بالغ أقصى غاية فى غروره .

ومن العيوب التى تمت الى الغرور بأكثر من سبب ، التبرم وكثرة الشكوى وعدم رضى المرء عن حالته وعن الناس أجمعين ، فهو دائما أبدا ناقم على الدنيا ، متبرم بالناس ، لأن الدنيا لم تسعفه ، والناس لم تنصفه ؛

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

فهو دائم الشكوى من الظروف والملابسات ، ومن الدهر الظلوم :

الدهر لا يدرى بما هو كائن فيه ، فكيف يلام فيما كانا
نشكو الزمان ، وما أتى بجناية ولو استطاع تكلما لشكانا

واستمرار الشكوى يعكر المزاج . ولكن المزاج العكر لا يغير مجرى الحوادث ولا طبيعة الأشياء التى لا تهتم لنا . وأفضل من التذمر والشكوى إذا كنا أمام عمل لا يسرنا ولا يروقنا أن نقبل عليه هادئين راضين ، فنتغلب على الموقف فلا نسمم حياتنا . فان أمامنا من الآلام الحقيقية ما يغنينا عن اصطناع آلام وهمية . وصفوة القول إن المتذمر الشاكى متعب ، متعب فى معاملته ، متزعج ، مزعج فى صداقته .

ولما كانت العيوب سلسلة متماسكة الحلقات فان هذين العيبين ناشئان فى الغالب عن الأنانية والإفراط فى حب الذات . وهو عيب قد تفشى وانتشر ، حتى أصبح خطرا وأى خطر ! .

يقول علماء النفس إن فى طبيعة الانسان عاملين أو حافزين متناقضين : حبه ذاته أو الأنانية التى تدفعه الى حصر همه فى نفسه ، وحبه غيره أو الغيرية التى تدفعه الى الانصراف بكل همه الى الغير . فاذا تلاشى العامل الأول صار الانسان كريما الى حد الاسراف والجنون وإذا تلاشى العامل الآخر صار الانسان شريرا الى حد الضرر والاجرام .

فلنحب ذاتنا ، ولنحب سوانا ، فنطلب الخير لأنفسنا ، ونطلبه لسوانا .

والذى يحصر همه فى دائرة ضيقة من الصداقات والعلاقات ، لا يلبث أن ينتهى به الأمر الى الخطأ الفاضح فى أحكامه وآرائه ، بل الى البغض والحقد فى ميوله وعواطفه . فيجب أن نخرج من دائرتنا الضيقة لننظر الى الأفق الفسيح ، فنفهم آراء غيرنا وقضاياهم ، أفرادا كانوا أم جماعات ، احزابا أم طوائف ، مهما تختلف الميول والمذاهب . وإذا خرجنا من دائرتنا الضيقة ينبغى ألا نطالب الناس بالكمال المطلق .

أتطلب صاحبا لا عيب فيه وأنت لكل ما تهوى ركوب

ومتى طالت شكوى الانسان من حالته ومما يحدق به لا تلبث أن تولد فى نفسه شيئا من الضغينة والحسد . وقد يكون الحسد أكثر العيوب الصغيرة محاولة للتستر والاختباء ، كأنه يخجل من نفسه ويستحى من السفور ، فيدب فى هى الكتمان وهو كالسم ينهش القلب بل هو "كالنار تأكل بعضها ان لم تجد ما تأكله" .

ولا شك فى أن أنجع وسيلة للشفاء من هذا المرض النفسى أن نسابق من نحسده فى ميدان الفضل ، ونتنافسه فى مكارم الأخلاق ، كما أن أحسن طريقة لئلا نحمل الضغينة لمن أساء الينا ، أو تصورنا أنه أساء الينا ، ولئلا نحقد عليه ، ولئلا نحاول الانتقام منه ، أن نحسن نحن اليه ، فاذا كان هو غير جدير باحساننا فإن هذا الإحسان يكسبنا راحة واطمئنانا أما اذا حصرنا همنا فى طلب الانتقام ممن أساء الينا فاننا نكون قد عملنا على التشبه به ، ونحن بالعفو أفضل منه .

ويقول كثيرون إن الاحتقار والإعراض لما يقضى على الحاسدين الحاقدين المبغضين ، ولكن الله و والاحسان أفعل فى القضاء عليهم ، جربوا تعرفوا ، وتشعروا براحة واطمئنان كان المأمون يقول : "ان الله لا يثيبنى على العفو لأنى أحبه" .

ويخطئ من يزعم أن من لا يبغض لا يحب ، ومن لا يحقد لا يعفو ، ومن قال ذلك كأنه قال إن من لا يجبن لا يشجع ، ومن لا يسرق لا يعف ، وكأنه ليس من فضيلة تزيننا إلا ويقابلها رذيلة تشيننا .

وهناك عيب من العيوب الصغيرة الكثيرة الشيوع ، وهو الغضب أو حدة المزاج ، وقد عرف علماء النفس الغضب بأنه جنون قصير المدى ، ونحن نقول "سورة" الغضب

كما تقول " سورة " الخمر ، لأن الغضب يشبه السكر فيذهب بالعقل الى حين ، فيكشف العيوب و يفضح الأسرار ، وفى النهاية يورث الندم ، و يكفى لكى تكره الغضب أن تنظر الى الغضبان ، كما تكره السكر اذا نظرت الى السكران .

وإذا أثارك كلمة أو استفزك حادث إلى الغضب فالأجدر بك ألا تقول ولا تكتب شيئا إلا متى سكنت سورة غضبك ، فان حكمك على الأشخاص والحوادث يتغير ، وقد ينقلب الى النقيض بعد ساعات أو بعد دقائق .

وإذا كان الغضب مكروها فى ذاته ، فانه يصبح سخيفا مضحكا إذا تحول الى الأشياء : يستعصى علينا الزر عند لبس القميص فنغضب وقد نقطعه ، و يتمرد علينا المفتاح عند فتح الباب فنغتاظ منه وقد نكسره ، وتعثر رجلنا فى الطريق بحجر فنحنق عليه وقد نرفسه . والزر والمفتاح والحجر جوامد صماء لا تبالى غضبنا وغيظنا وحنقنا ولا يؤثر فيها عنادنا .

والعناد من عيوبنا الصغيرة ، وهو قوة النفوس الضعيفة الصغيرة . ولا نتوهمن أن العناد يمت بصلة قريبة أو بعيدة الى الثبات على المبدأ والحق ، أو إلى التمسك بالقانون والنظام ، بل هو فى الغالب التشبث بالرأى الخاطئ عن معرفة . وكثيرا ما يتحول فى المناقشة إلى مغالطة ومكابرة ، فتكون هزيمة المعاند فى آخر الأمر مخجلة مزرية ، وإذا كان على صواب كان عناده منقصا من فضله . وكم من مرة جعل العناد صوابنا خطأ .

أيها السادة : إن من استسلم الى هذه العيوب التى ذكرنا يصبح فضوليا ، أى أنه يهتم بما لا يعنيه من شؤون الناس ، فيحاول بجميع الوسائل معرفة أخبارهم ، بل الكشف عن خبايا صدورهم للاطلاع على أسرارهم . وكثيرا ما يتورع عن التلصص والتجسس لاستراق هذه الأسرار بالاستماع من وراء الأبواب ، والتطلع من النوافذ ، وفتح المكاتبات الخاصة . ومتى ظل الفضول فى دائرة توافه الأمور كان سخافة وسماجة ، ولكنه إذا امتد إلى المسائل الخطيرة أضحى شرا محقق الضرر . وعلى كل فهو عادة عيب من لا يعرف كيف يشغل نفسه بشؤونه فيشغلها بشؤون غيره .

أما إذا قادنا الفضول الى معرفة كل ما يقوله عنا الناس ، ولا بد من أن يقودنا الى ذلك ، فاننا نعيش منغصين منكدين ، لأن هذا الفضول يولد الشك والقلق . فاذا لم يتيسر لنا معرفة ما يجول فى خواطر الناس حاولنا أن نكشفه عن طريق الحدس والتخمين والشك . والانسان بطبيعته لا يريد أولا يحب أن يكون مخطئا فى تخمينه ، فيترع الى أن يجعل شكه يقينا ، وحدسه حقا ، وتخمينه أمرا واقعا ، فيثور و يغضب . ولما كنا بطبيعتنا كذلك لا نريد أولا نحب أن يكون غضبنا تجنيا ، وثورتنا ظلما ، فاننا نحاول أن نبرر هذا الغضب وهذه الثورة . فيبدأ غضبنا بمعاداة خيالات وأوهام ، ثم يصير الى مداوة الحقائق والأجسام

وهكذا نرى شغف الفضولى بمعرفة ما لايعنيه يفضى به الى سوء الظن ، و بعض الظن اثم ، و ينتهى به أخيرا الى الاساءة الى نفسه شر إساءة .

والصلة وثيقة بين الفضولى والثرثار . فالأول ولوع بأن يعرف أخبار الناس . والثانى ولوع بأن يعرّف الناس بأخبار الناس . هم الأول استراق الأخبار والأسرار ، وهم الثانى نشر الأخبار و إذاعة الأسرار . ولما كان السر وديعة فافشاء السر خيانة للثقة .

والثرثار لا يتورّع عن الاختلاق ، والمسافة قريبة جدا بينه و بين الكذب والنميمة والاغتياب ، فيتحوّل لسان الثرثار من حيث يدرى ولايدرى الى أفعى تنفث سمها الزعاف يمينا وشمالا فى الناس وسمعتهم وأعراضهم . وقد وصف الشاعر طائفة الكذابين المغتابين أحسن وصف إذ قال :

ان يسمعوا الخير يخفوه ، وان سمعوا شرا أذاعوا ، و إن لم يسمعوا كذبوا

ومن المعروف أن كلمة السوء تكبر وتتضخم بانتقالها من فم إلى فم ، بل قد يروى الواحد منا خبرا يتحفظ واحتياط فيمهد له " بقد وربما و يظن و يقال " ولا يلبث أن يعود هذا الخبر فيروى له بصيغة الجزم والتأكيد القاطع .

وهناك عيب صغير كثير الشيوع ، وقد يبدو فى أول أمره لطيفا خفيفا محببا الى القلوب ، ولكن ما أسهل ما ينقلب ثقيلا كريها ، وهو المزاح .

فاللطيف من المازحة يفكه النفس و يسرى عن الخاطر ، فيعرف المازح الظريف اللبق أن يجعل مزاحه مزيجا من المدح والنقد ، فلا يشير الى عيب صغير فى من يمازحه إلا ليظهر فيه فضيلة كبيرة ، و إلا انقلب المزاح بين الاخوان استهزاء يذهب بالصفاء ، وسخرية تقطع الإخاء ، وهل نعتقد أننا بلا عيب حتى نسخر من عيوب الناس ؟

قال الشاعر :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة قليلا وعلله بشىء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

فإذا مازحنا اخواننا وأصدقاءنا وجب أن نحرص على ألا نجرحهم فى عواطفهم وعقائدهم و إلا كان المزاح إهانة ، وألا نعرض بعاهاتهم وعيوبهم الجسمية و إلا كان المزاح غلظة وخسة .

قرأت لأحد حكماء العرب : " ينشق أحدكم أخاه مثل الجرذل ، و يدرغ عليه مثل المرجل ، و يرميه بمثل الجندل ، ثم يقول : إنما كنت أمزح ... " .

أما المازح المتظرف ، أو الظريف المتصنع ، فلا شك فى أنه أثقل من الجندل ، بل أثقل من الجبل .

وهناك عيب آخر ربما صح إهمال ذكره بين العيوب لولا ما يجر اليه من العواقب ، وهو ما أسموه الحياء البشرى . فيحملنا هذا العيب الصغير على الخجل من حقيقة أمرنا . ثم يدفعنا الى الاهتمام بما يعتقده الناس فينا ، فنقضى وقتنا فى البحث عن آرائهم فى أعمالنا وأفعالنا ، بدلا من أن تمضيه فى إجادة هذه الأعمال . وقد قال أحد الظرفاء : كثرة الحياء مع الناس قلة حياء مع النفس .

ومتى وصل بنا هذا الحياء الى الإحجام فى قول الحقيقة أصبح نوعا من المداورة : نريد شيئا فنحوم حوله ولا نذكره . ونطلب أمرا من الأمور الجائزة فنسعى الى الحصول عليه بطرق ملتوية . وقد يكون المداور مستقيما ولكننا على كل حال نتحاشى معاملته .

وياليت الحياء يقف عند هذا الحد ، ولكنه يتطور ويتكيف حتى يصير مجاملة . ونحن مفطورون على المجاملة والمصانعة . قال شاعرنا العربى :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

نحن نجامل ونصانع فى شتى الأمور ، وإن لم يكن هناك خوف من أنياب ولا منسم . بل كثيرا ما نكذب من باب المجاملة فنقع فى مشكلات معقدة كان يغنينا عنها شىء من الصراحة ، كأن نعرف مثلا أن نقول "لا" وكم كانت المجاملة أخصر طريق الى المداهنة والتدليس والنفاق .

أيها السادة : هذه العيوب ، مهما نصغر من شأنها ومهما نتعمها تجوزا بالصغيرة — هى عظيمة الأثر فى طباع الانسان وأخلاقه فتفعل فيه فعل السوس فى الخشب ، بل فعل النار فى الحطب . وقبل أن تعصف بها عصفا تورثه ضعفا فى الارادة وخورا فى العزيمة فتقعد بهمته ، وتضيع ثقته بنفسه ، وتدفع به الى التواكل والاستسلام .

وقد يكون التواكل من ألصق عيوبنا بنا : ينشأ ويتدرج معنا ، فالطفل والشاب والرجل ، كل منا ، يألف الاهمال والاتكال على غيره فى قضاء أقرب الحاجات الى نفسه ، مع أن شاعرنا العربى قد أشاد بفضل الاعتماد على النفس :

وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول فى الدنيا على رجل

والرجل المتواكل المتردد يضيع أيامه سدى ، لأنه يقضى زمنا طويلا بين الرغبة والارادة ، وبين الارادة والاعتزام ، وبين الاعتزام واختيار الوسيلة ، وبين اختيار الوسيلة والنهوض لتنفيذها . فينفق حياته واقفا متردّدا بين طريقين لا يعرف أيهما يختار .

والتواكل والكسل عيبان متلازمان ، بل شقيقان توأمان ولا يورثان الاضياع الوقت ، والوقت الذى يقدره الغربيون بأثمن المعادن ، لا يساوى فى نظر بعضنا حفنة من التراب ،

فى حين أننا مستطيعون أن نعوض كل خسارة مادية ولسنا بمستطيعين أن نعوض ساعة واحدة من الساعات التى ننفقها من حياتنا بلا حساب .

نحاول ، كما نقول، أن نقتل الوقت وننسى أن من يريد أن يقتل الوقت، قتله الوقت.

نحن لا نحب شيئا فوق حبنا الحياة ، ولكننا لا نسرف فى شىء اسرافنا فى مادة الحياة . والحياة لحظة خاطفة ، ولكن الانسان المجتهد يستطيع فى هـذه اللحظة الخاطفة أن ينجز أعمالا خالدة .

فلنروض أنفسنا على القول فى صباح كل يوم ، ليست الحياة يوم عيد ، ولا يوم مأتم، بل الحياة يوم عمل :

اذا مرّ بى يوم ولم استفد يدا ولم أكتسب علما فما ذاك من عمرى

سيداتى :

لم أتناول فى عرضى هذا عيوبا خاصة بكن ، لأن عيوبكن ، هى عيوبنا ، وان كان بعضها أبرز فى الرجل ، والبعض الآخر أظهر فى المرأة .

ولكنى أقول إن المرأة اذا أصلحت نفسها قد تكون أنجع وسيلة لإصلاح الرجل . فأنتن يا سيداتى خير معوان لنا على اصلاح أنفسنا واستكمال فضلنا .

وهناك عيب من العيوب الصغيرة كنت أرجو ألا أكون قد وقعت فيه هذا المساء ، وهو حب الوعظ والإرشاد . ولكنى أعترف أنى لم أفطن له إلا عندما وصلت أمس الى هذا الحد من كتابة محاضرتى . فماذا فى غير مقدورى إصلاحه إلا إذا طويت محاضرتى ، وربما كان الطى أفضل من النشر ، ولكنه لم يكن بالأمر الممكن ولا الجائز بعد أن تلقيتم دعوة هذه النقابة الناهضة لاستماع هذا الحديث ، غير أن شفيعى لديكم إخلاص النية وحسن القصد ، فتغتفرون لى هذا العيب وغيره مما بدا لكم فى كلامى من عيب أو نقص . ويكاد يأخذنى أنا أيضا شىء من التواضع الكذاب الذى أشرت اليه فى مطلع محاضرتى فأقول بدورى :

إن تجد عيبا فسد الخللا جل من لا عيب فيه وعلا

أيها السادة : عرضت عرضا سريعا لطائفة من العيوب أو النقائص التى نرتكبها كل يوم ، ونحاول تبريرها بوصفها بالصغيرة ، وما هى فى الواقع بالصغيرة ، قد يكون فى قانون العقوبات تفاوت بين الكبائر والصغائر من المخالفة الى الجنحة إلى الجريمة الى الجناية ؛ ولكنهم كلها فى القانون الأدبى سواء .

وقد يكون خطر العيوب الصغيرة أشد من خطر العيوب الكبيرة ، ذلك أن الكبيرة تشهر علينا حربا علنية فنخافها ونحتاط لها . أما الصغيرة فتتمكن منا خلسة وعلى غفلة منا ،

نحجم عن القتل بالسلاح وعن سرقة المال ، ولا نحجم عن القتل باللسان وعن سرقة المجد المزيف .

وهكذا تنسج العيوب الصغيرة حولنا خيوطا رفيعة لا نأبه لها فى بدء الأمر وتنتهى بأن تكون اصفادا من الحديد نرزح تحتها .

ويزيد فى خطر هذه العيوب أنها قد تكون فى ظاهرها أقرب الى الفضائل منها الى الرذائل ، بل انها قد تتقنع بقناع الفضيلة ، فيبدو الغرور اعتدادا بالنفس ، والخيلاء اباء ، وحب الذات غيرة ، والغضب ثورة للكرامة ، والحسد تنافسا محمودا ، والفضول حب استطلاع ، والثرثرة ذلاقة لسان ، والتواكل توكلا على الله .

وهذا ما يدعونا الى زيادة الحذر من العيوب الصغيرة لئلا تغزو قلوبنا وعواطفنا فى هذا المظهر الهين اللين فاذا تمكنت أصبحت عاتية مستبدة ، تفرض علينا إرادتها الدكتاتورية من حيث ندرى ولا ندرى ، لأنه اذا كان يصعب على الانسان أن يرتقى من الفضائل الصغيرة الى الفضائل الكبيرة فانه من السهل جدا أن ينزلق من العيوب الصغيرة الى العيوب الكبيرة .

ونحن نألف عيوبنا النفسية كما نألف عيوبنا الجسمية ، فنعود لا نأبه لها ولا نشعر بها ، ولكن الناس يشعرون وينزعجون ، وكثيرا ما يتألمون .

اخوانى : أنتم فى مطلع الحياة ، تنشرون قلوعكم لريح الأمل تدفعكم الى الأمام ، ولكننا فى عصر اشتدت فى خضمه العواصف العاصفة وثارت فى جوه الأعاصير الهوجاء ، ولا سبيل الى الثبات أمامها إلا إذا كان كل من فى السفينة حذرا يقظا يؤدى واجبه على الوجه الأتم .

وما أكثر واجباتنا فى هذه الأيام ، حكاما وشعبا ، أفرادا وجماعات ، وأول واجبات الشبان أن يكونوا مثقفين بالمعنى الحقيق والمعنى المجازى ، أى قويمى الأخلاق مجملين بحلى التهذيب .

فاذا شئنا أن نخدم بلادنا ، وأن نخدم عشيرتنا ، وأن نخدم أنفسنا ، فلنقبل على الفضائل تجملا لا تفضلا ، ولنقلع عن العيوب تورعا لا تصنعا ، فأنتم أيها الشبان النجباء فى عمر تستطيعون من هذا القبيل ما تريدون ولكنكم ستصيرون الى عمر تريدون ولا تستطيعون :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

أنطون الجميل

هل نحن شعب قذر ؟

حملة فى سبيل النظافة ...

يذكر التاريخ أن الشعب المصرى القديم كان من أنظف شعوب العالم ، تشهد بذلك وصاياه وصوره ومخلفاته . وذلك طبيعى فى شعب فتح التاريخ عينه على حضارته الذاهبة فى القدم مذهب التاريخ ، والنظافة طابع الحضارة الأول فى جميع الشعوب .

فمن العجيب إذن أن تنقلب هذه الحالة فتصبح القذارة هى الطابع الشعبى الغالب فى هذه الأيام ، ذلك الطابع الذى تراه العين وتتأذى به فى كل ماتقع عليه .

تراه باديا فى الملابس القذرة التى يلبسها الفلاحون والعمال ومن فى طبقتهم ، وهى مليئة بالبقع والوساخة والأتربة ، ودعك من اختلاف الأزياء فى هذه الأوساط ذلك الاختلاف الذى يدل على سوء الذوق وضعف ملكة النظام. فنحن لانريد مؤقتا إلا النظافة لهذه الأزياء المختلفة جد الاختلاف .

وتراه واضحا فى البيوت ، ففضلات الآدميين والحيوانات والطيور مخلوطة بالتراب وبقايا الطعام والماء القذر ... جميعها تؤلف "معجنة" يتوالد فيها الذباب والبعوض والصراصير وسواها من الحشرات ، فضلا على الرائحة الكريهة والمنظر المؤذى ، الذى ألفته أعين الفلاحين فى القرى وسكان الأحياء الوطنية فى المدن حتى أصبحت لاتنفر منه ولا تأباه .

وتراه فى الطرقات المهملة المكدسة بفضلات البيوت ، وبأكوام السماد العضوى ، وأنقاض البيوت المهدومة ، حتى لتبلغ الحال أن يكون هذا مظهر بعض الشوارع الرئيسية فى العاصمة ذاتها حين تهدم البيوت أو تشق الشوارع لأنابيب الماء والمجارى والنور ، أو لغيرها من الأغراض ، ويقع فى بعض الأحيان أن يضطر المارة الى تسلق هذه التلال والتدحرج من فوقها ثانية فى الظلام . كما يقع أن يتزل المطر الخفيف فيحيل هذه الأكداس فى قلب القاهرة الى مزالق وبرك ومستنقعات وأوحال لعدة أيام .

وتراه فى المطاعم الوطنية جاثما على موائدها وصحافها وأدوات الأكل والمناشف. وسواها وإنك لتجد الذباب يطن ، وفضلات الطبخ متجمعة بجوار هذه المطاعم بصورة مؤذية ،

ونظرة واحدة الى الطريقة التى تنظف بها الصحاف والأدوات كفيلة بأن تتقزز لها النفس ، ومع هذا تقبل طبقات كبيرة من الشعب على تناول الطعام هناك وهـذه المناظر أمامهم بدون حذر ولا تقزز .

وتراه فى دكاكين البدالين والقصابين وبائعى الخضر والفاكهة على الرغم من جميع الإجراءات الصحية المشترطة فى افتتاح هذه الدكاكين مما تشوه منظرها ، ويولد فى النفس الاشمئزاز من منظرها بله تناول ما فيها من الضروريات .

وطبيعى أن ترى طابع القذارة بعـد ذلك فى الباعة الجوالين وعربانهم وفى باعة اللبن وأدواتهم .لا فى المواد التى يبيعونها فقط ولكن فى ملابسهم وأجسادهم ووجوههم وأصابعهم التى يلمسون بها ما يبيعون أو يغطسونها فيما يبيعون إذا كان سائلا كاللبن والشراب ، بلا حذر ولا مبالاة .

* * *

بين هـذه الحالة وبين الحالة الاقتصادية العامة لهذه الطبقات صلة كبيرة ولا شك ، فالعجز عن النظافة سبب أصيل من أسباب القذارة ، وكل محاولة لرفع مستوى هؤلاء الناس من الوجهة المـادية هى محاولة فى سبيل النظافة من غير شك . وكثيرون أولئك الذين يقعدهم عن النظافة عدم القدرة على شراء الصابون بل على شراء المـاء فى كثير من الأحيان ، وكثيرون ليس لملابسهم التى على أجسادهم بدل فهم لا يخلعونها حتى تبلى ، ولا يجدون سواها بعد أن تبلى ، فيرقعونها ويخيطونها خياطة رديئة تمسك مزقها مجرد إمساك ، ولا حيلة لهم فى هذا المظهر الزرى الذى تتأذى به العين .

ولكننا مع هذا نظلم الحالة الاقتصادية إذا نحن حملناها تبعة هذه القذارة العامة . فكثيرون جدا من هؤلاء القذرين يملكون النظافة . والنظافة ليست غالية الثمن حين تراد ، بل يملكون الأناقة لا مجرد النظافة وهم مع ذلك قذرون .

خذ مثلا لذلك تلك المطاعم الشعبية الكبيرة التى يربح أصحابها مئات الجنيهات كل شهر فى بعض الأحيان ، وهى مع هذا قذرة المقاعد والموائد والأدوات والمناشف ، وقذرة الحوائط والسقف والأرض وقذرة العمال والخـدم . ما علة هـذه القذارة فى تلك المطاعم وأصحابها يملكون نظافتها من أيسر سبيل ؟

ثم دكاكين البدالة والخضر والفاكهة واللحم واللبن وسواها ، وأصحابها غير فقراء ، والنظافة لا تكلفهم الكثير ، والنظام لا يكلفهم شيئا أصلا ، وهم مع هذا قذرون وبضاعتهم قذرة فى كل مكان .

ثم هؤلاء الباعة الجوالون وهؤلاء العمال الصغار الذين يلبسون جلاليب متعددة الأشكال والألوان وثمن هذه الجلابية بلا شك يعادل أو يزيد على ثمن الكساء الأزرق أو البنى الجميل الذى يلبسه بعض العمال . وهذا الكساء أمتن وأكثر تحملا للعمل وللغسل ، وهم مع ذلك لا يلبسونه ، ولو لبسوه لكان خطوة كبيرة فى سبيل توحيد الأزياء .

ثم انظر إلى أطفالنا فى القرية وفى قلب المدينة وهم يخوضون فى أوحال المطر أو الأوحال الناشئة من كسر أنبوبة مياه فى الطريق العام . انظر اليهم تجدهم يلتذون هذا الخوض ويمرحون فى هذه القذارة وهناك جانب الطريق النظيف وهم يتنكبون عنها هربا من النظافة فالقذارة إذن فى روحهم وفى عاداتهم ، وليست اضطرارا لامحيص لهم عنه !

ثم انظر هؤلاء الذين يلقون بالقمامات فى الطرقات العامة وعلى بعد أمتار منهم صندوق معد لهذه القمامة . أو إلى هؤلاء الذين يلقون الأوراق المهملة فى الطريق وأمامهم سلة المهملات معلقة فى العمود . أو إلى الذين يلقون بأعقاب السجاير فى أرض المقهى أو على بساط حجرة الجلوس أو يطفئونها فى أطباق القهوة وأمامهم منفضة السجاير ، أو إلى أولئك الذين يبصقون على الأرض وفى جيوبهم المناديل ، كأنما وضعت هناك للزينة !

هؤلاء جميعا حجة على أن القذارة عادة وليست ناشئة عن اضطرار أو عجز عن النظافة .

ولا أريد أن أتحدث عن الريف القذر حتى فى بيوت الوجهاء هناك ، القادرين على النظافة لو أرادوها ؛ ولو نظفوا بيوتهم لكانوا فى ذلك قدوة لسواهم من صغار الفلاحين ، ولكن القرى بأغنيائها وفقرائها تنغمس فى هذه القذارة بلا اهتمام .

وكثيرا ما نشاهد عاملا مصريا وعاملا أجنبيا يتقاضيان أجرا واحدا ، أو بائعا مصريا و بائعا أجنبيا يكسبان مكسبا متقاربا ، أو دكانا مصرية ودكانا أجنبية متساويتين فى رأس المال ؛ ثم نرى الفرق بعيدا بين مظهر كل منهما ومظهر الأخرى فى النظافة والإناقة والترتيب .

المسألة إذن ليست مسألة الفقر وحده ، ولا مسألة العجز وحده . إنما هى أعمق من ذلك ، هى مسألة الحالة النفسية ، ومسألة التربية المنزلية ، ومسألة الشعور الإنسانى بالحياة .

وهنا نلمس نقطة خطيرة أو نقطا خطيرة .

فأنا أعتقد أن طول عهود الخمول الشعبية فى مصر من جراء الضغط السياسى والاقتصادى مئات الأجيال ، قد أثرت فى الروح المصرية العريقة ، وقضت أو دفنت روح الحضارة المصرية القديمة ، فأصيبت النفسية الشعبية بالكثير من الخمول والزهدو "القرف" من الحياة . ومن شأن هـذه الحـالة أن تميت الميل الى النظافة ، فالنظافة حاجة روحية قبل أن تكون حاجة جسدية ، والفرد الذى يشعر بقيمته يميل الى النظافة وحسن المظهر ، وكذلك الشعب الذى يشعر بقيمته ومركزه فى الحياة .

ولقد كان المصرى يحس بعظمة مكانته فى العالم وسمو عنصره على جميع العناصر فى أيام مصر القديمة العريقة ، فكان لهذا نظيفا خفيفا ، وكان رياضيا كذلك معنيا بجسمه وهندامه معا ؛ فلما توالت عليه الكوارث وفقد استقلاله ، وفقد أهميته فى الكون آوى إلى الخمول والقذارة والركود .

القذارة اذن مظهر طارئ على المصريين ، نشأ عن الخمود الروحى ، والخمول الأدبى ، فاذا عرفنا ذلك عرفنا كيف نضع يدنا على النقطة الحساسة فى العلاج ، وهى استعادة الشعور بالعزة القومية والعظمة العنصرية ، والأمجاد الوطنية ، وعرفنا أن الوتر الحساس الذى يجب أن نوقع عليه هو وتر الاحساس القومى والوطنى فى نفوس المصريين .

النظافة ممكنة — مع الفقر بل مع العوز — اذا أيقظنا فى النفس المصرية حاجتها الى النظافة ، وستحس بهذه الحاجة يوم تحس أنها فى حاجة الى حسن المظهر الداعى الى الاحترام ، وستحس بهذا الاحساس الأخير يوم تشعر أنها شىء له قيمة فى الحياة وليست كمية مهملة فى نظر الدنيا ولا فى نظر الحكام !

وتلك هى نقطة البدء فى العلاج .

* * *

ولكن هذا أمر يطول ، ولا بد معه من وسائل أخرى مباشرة وسريعة ، وهذه الوسائل هى التى نقترحها فيما يلى باختصار :

أولا — العناية بتربية الذوق وبث روح النظافة فى الأطفال الصغار ، وتربية الذوق كلمة صغيرة ولكن تحقيقها يحتاج الى مجهود ضخم تشترك فيه قوى الدولة وقوى الأمة جميعا !

فتربية الذوق تقتضى أن تجعل جميع المناظر التى تقع عليها عيون الأطفال فى البيت والطريق والمدرسة ، وهذا يردنا الى طلب المعجزة التى تبث النظافة والجمال فى جميع هذه الأوساط .

اذن نتواضع ونطلب فقط أن يكون منظر المدرسة التي يقضي فيها التلميذ ثماني ساعات في اليوم تقريبا منظرا يربي الذوق في النفوس ، وهذا وحده يعد نواة طيبة لتربية الذوق ، فاذا أضفنا اليه مراعاة الجمال في كتب التلاميذ والمصورات المعلقة بالجدران ، وفي حديقة المدرسة ونظام فنائها ، كان ذلك خطوة أخرى كبيرة .

و إذا أضفنا الى ذلك أن تعمل الدولة على الإكثار من المتنزهات والحدائق العامة ولا سيما في الأحياء المكتظة . بحيث يجد أطفال هـذه الأحياء متنفسا غير البيوت القذرة والطرقات الموحلة ، فإن ذلك يقربنا جدا من تربية الذوق العام .

و إذا أضفنا الى هذا وذلك أن تعمل الدولة على مراعاة روح النظام والجمال في المباني بطريق القانون والإرشاد الفني ، بحيث تجمل أو تنعدم تلك المناظر المشوهة للأبنيـة حتى في الشوارع الجديدة ، كان ذلك ترقا تراه الأمم المتحضرة من الضروريات لتربية الذوق العام!

و بجانب هذه المظاهر العامة ينبغي أن تتابع المدارس عنايتها بالنظافة الشخصية للتلاميذ ، وهي تبـذل الآن عناية مشكورة بالفعل ، ولكن يجب أن توضع جوائز للنظافة تشجيعا للتلاميذ ، وتمنح هذه الجوائز على الأخص لأبناء الفقراء من التلاميذ الذين يبذلون في النظافة جهدا حقيقيا لا يبذله أبناء الأغنياء . فهؤلاء يجدون النظافة ميسرة ولا ضرورة لتشجيعهم عليها ، فهم بحكم وسطهم نظيفون غالبا ؛ إنما أولئك هم الذين يحتاجون الى التشجيع والتعويد.

ثانيا — بتيسير وسائل النظافة للعاجزين عنهـا من الوجهة المـادية ، ووزارة الصحة و وزارة الشؤون الاجتماعيـة تعملان على ذلك بإنشاء المغاسل والحمامات وتوزيع الصابون والملابس ، ولكن هذا العمل ينبغي أن يقوم على دعائم شعبية كبيرة ، فميزانية الدولة لا تسمح بتلبيـة جميع الحاجات ، والمبرات التي يهم بها الأهالي يجب أن ينصرف قسم كبير منها إلى هذه الغاية ، فلدينا مؤسسات خيرية كثيرة عندنا منها فوق الكفاية ، بينما المؤسسات العصرية الحديثة قليلة أو نادرة . فمن الواجب أن نراعي روح العصر فيما ننشئ من مؤسسات ، وتيسير النظافة من أشد ما يحتاج اليه شعب فقير .

ثالثا — بالتشريع والمراقبـة . وهـذا ما توجه إليه وزارة الصحة جهودا مشكورة ، ولا سيما صحة العاصمة ، ولكن يجب أن يكثر عدد المفتشين والمعاونين الصحيين ، وأن تشتد وسائل المراقبة ، وأن تزيد العقوبات المفروضة على المخالفات الصحية . وقد أثمرت جهود الصحة في مظاهر بعض الدكاكين والعربات الجوالة ، ولكن ملابس الخدم والعمال بهـذه المحال وملابس الباعة الجوالين كذلك وأجسامهم لم تشملها النظافة .

ولا يغيب عنا أن الحالة المـادية لبعضهم قد تجعـل النظافة عبئا ثقيلا على مواردهم ، ولكن تيسير وسائل النظافة المجانية قد يحل هذه المشكلة ، ويجعل النظافة ميسورة للجميع .

رابعا — بالعمل على الإكثار من المراحيض العامة فى البيوت والقرى فى الريف، فكثير من المياه القذرة يصب فى الشوارع لأنه لا مصرف له إلا الطريق العام ، وهذا يسبب كثيرا من الأمراض فوق المنظر القذر .

خامسا — بالإرشاد والتلقين . وفى هذا السبيل يجب أن نجرد حملة مشتركة من رجال الدين ورجال التعليم ورجال الصحة والمرشدين الاجتماعيين، ومن الإذاعة والتمثيل. ومن جميع الوسائل التى نملكها .

فالواقع أن الكثيرين ينقصهم الإرشاد والتوجيه، أكثر مما تنقصهم المقدرة على النظافة، وهؤلاء نستطيع أن نكسبهم إذا دخلنا إلى نفوسهم من باب الدين تارة ، ومن باب الصحة تارة ، ومن باب الكرامة تارة ، فيصبحون بدورهم جنودا فى معركة النظافة .

وهنا ينبغى أن ننبه إلى العامل النفسى الذى تحدثنا عنه آنفا ، فعامل الكرامة من أهم العوامل فى النظافة ، وقلما رأيت فردا واحدا يشعر بكرامته فى الريف أو فى المدينة ثم يبقى على قذارته ، فبين الشعور بالكرامة وبين النظافة صلة وثيقة فى جميع الأزمان والأحوال .

وقد أسلفت الحديث عن أثر المهانة القومية والانحلال الوطنى فى روح النظافة التى عرف بها المصريون القدماء ، فلنعتمد على إثارة روح الكرامة القومية والشخصية إذا أردنا إيقاظ هذا الروح القديم العريق .

ويجب أن نذكر أن مشكلة البلهارسيا والانكلستوما والأمراض الجلدية المختلفة والملاريا والتيفود والتيفوس هى مشكلة النظافة، فالتبول والتبرز فى المجارى العامة هو علة الأمراض المتوطنة، والملاريا هى مرض اليعوض والتيفود هو مرض الخضر القذرة، والتيفوس هو مرض القمل، والأمراض الجلدية هى أمراض الوساخة .

وأخيرا يجب أن نتجه إلى الأم المصرية نستنجد بها لتربية الطفل المصرى على روح النظافة والنظام، وهى لن تسمع صيحتنا إلا إذا كانت متعلمة، ولكننا مع الأسف الشديد نرى البنت المصرية تتعلم لتهجر البيت مطالبة بعضوية البرلمان وبالوظائف العامة، أو تركن إلى البيت ولكنها تتمرد على شؤونه الخاصة وعلى تربية الجيل الجديد .

إننا نريد مجندات فى معركة النظافة ومعركة التربية الجديدة ، مجندات ينشئن الجيل ، ويقدن الأمهات اللاتى لم يسعفهن الحظ بقسط من التعليم ، ويوجهنهن إلى النصر فى هذه المعركة العظيمة .

لقد كنا شعبا نظيفا فى أول التاريخ ، فلنبق شعبا نظيفا ، والأمم من حولنا قد أخذت عنا أول حضارة فى التاريخ .

كيف ينبغى أن يوجه العلم والعلماء لتحقيق تعاون عالمى

بقلم الدكتور على مصطفى مشرفة بك

عميد كلية العلوم

إن التعاون العالمى بين العلمـاء قائم منذ سنين . فالعلماء فى مشارق الأرض ومغاربها يكونون أسرة واحده تربطهم روابط لا انفصام لهـا . فالعالم الامريكى فى معمله يتم بحثا و ينشره فى مجلة أمريكية باللغة الانجليزية ، و بعد مدة وجيزة تكون هذه المجلة فى أيدى علماء أوربا وآسيا وافريقيا واستراليا فإذا هم عاكفون على دراسة هـذا البحث ثم هم بعد ذلك معقبون عليه أو ممحصون له . وقد يحـدث أن يثير هذا البحث اهتمام عالم فى آسيا فيقوم بتجربة متممة لتجربة العالم الامريكى و ينشر نتائجها فى مجلة يابانية بلغة أخرى كاللغة الألمـانية ثم يتلقف الكرة بعد ذلك عالم نرويجا ينشر بحثه باللغـة السويدية وهكذا ، بل ان الذى يحدث فى كثير من الأحايين هو أن يشتغل العلماء فى قارات البسيطة المختلفة فى بحث مسألة واحدة فتتكون فرق من العلماء فى فروع العلم تجمعهم الرابطة العلميـة و إن تفرقوا على سطح المعمورة .

هذا التعاون العلمى قائم بين العلماء منذ سنين وقد نشأ عن تنظيمه والعناية به فى أواخر القرن المـاضى وفى القرن الحالى ازدياد عظيم فى تقدم العلم ووفرة فى الانتاج العلمى ولعلكم تعرفون أنه عدا تبادل المجلات العلمية بين الأمم المختلفة توجد وسائل أخرى لتحقيق تعاون العلماء كعقـد المؤتمرات وتبادل الأساتذة بين الجامعات و إرسال البعثات العلمية وانتخاب أعضاء أجانب ومراسلين فى المجامع العلمية وغير ذلك من وسائل التعاضد والتساند . وقد نشأ عن هذا كله أن صار العلماء فى مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى أنفسهم كأسرة واحدة يعين كبيرها صغيرها و يعطف عليه و يجل صغيرها كبيرها و يسترشد به ، وللجميع غاية مشتركة هى رعاية شجرة المعرفة وانماؤها و إجلال نور العلم محل ظلام الجهـالة . وفى وسط هذا كله يوجد التنافس السليم المشروع بين العلماء جميعا تنافس لا يشوبه حقد أو ثرة حتى إذا ماوصل عالم إلى الكشف عن حقيقـة و فق فى الوصول إلى مالم يوفق اليه غيره أكبر العلماء نبوغه وعبقريته وجده و إخلاصه وأحاوه المكان اللائق به بينهم . ولا شك فى أن حجر الزاوية

فى بناء هـذا المجهود التعاونى إنما هو حب العلماء للحق وشغفهم به واخلاصهم فى طلبه فهذا هو الذى يلهمهم أعمالهم ويهديهم سبلهم .

ومما تجب ملاحظته أن هذا التعاون بين علماء الأمم المختلفة لم يكن ليتحقق لو لم يسبقه تنظيم التعاون بين علماء الأمة الواحدة وهذه حقيقة أرجو أن تولوها ما تستحقه من عناية لأنها تنطبق لا على التعاون العلمى وحده ولكن على كل تعاون منتج بين الأمم ، فقبل أن توجد الجمعيات التى تنظم المؤتمرات التى تشترك فيها الدول المختلفة وجدت الجمعيات التى يربط كل منها بين علماء الدولة الواحدة . وبعبارة أخرى قـد كان من الضرورى أن ينشأ المجمع العلمى فى باريس والجمعية الملكية فى لندن والمجامع العلمية فى واشنجطن وطوكيو قبل إنشاء الجمعيات الدولية الدائمة فى جنيف وبروكسل .

وخلاصة ما تقدم أن التعاون بين العلماء حقيقة واقعة وأن أساليب هذا التعاون قد درست ونظمت بحيث لا ينقصها إلا التطور الطبيعى دون مساس بالأسس التى بنيت عليها . إلا أن هذا التعاون محدود المدى فهو لا يخرج عن دائرة العلوم الأكاديمية وهى دائرة كما تعلمون تكاد لا تمس حياتنا اليومية ، فالعلماء يشتغلون فى معاملهم ومكتباتهم وجامعاتهم ويحضرون اجتماعات جمعياتهم العلمية ويطالعون نتائج أبحاث زملائهم من العلماء ثم هم يحضرون المؤتمرات الدولية ويتعاونون جميعا على غرضهم المشترك وهو الوصول إلى المعرفة . وهم فى هـذا كله بعيدون عن مشاكل السياسة والحرب والاجتماع لا يعنون بأمرها إلا بقـدر ما يعنى الفرد العادى أو دون ذلك . لا شك فى أن موقف العالم هذا من المجتمع موقف تقليدى قد تحدد فى القرون الوسطى بل قد تحدد منذ العصر الإغريقى والعصر الإسلامى ولعل القراء يعرفون الحكاية التى تروى عن اقليدس إذ دخل عليه رجل فوجده يرسم دوائر ومثلثات وينعم النظر فى أشكالها الهندسية فسأله ما الفائدة من هـذا كله ؟ فكان رد اقليدس أن صفق بيديه فحضر خادمه فقال اقليدس للخادم أعط هذا الرجل دينارا . ومغزى هذه الحكاية أن العالم انما يطلب العلم لذاته شغفا به وحبا فيه ، فمن كان يريد الفائدة المـادية فليطلبها عن طريقها وليترك العلماء منهمكين فى بحوثهم مقبلين عليها ناعمين بها . هـذا هو الموقف التقليدى للعلم إزاء المجتمع وهو موقف سليم فى حد ذاته أو أنه كذلك من وجهة نظر العلم إذ لا شك فى أن النفس البشرية تواقة إلى المعرفة ، وحب الاستطلاع غريزة لا تقل فى أهميتها أو فى عمقها النفسى عن غيرها من الغرائز البشرية وليس لإنسان أن يعطى لأى عمل من أعمال البشر قيمة أعظم من قيمة الاشتغال بالعلم .

ولكن أمن الممكن أن يبقى العلماء فى صوامعهم متجاهلين ما بين عملهم وبين المجهودات البشرية الأخرى من صلة تزداد قوة بمرور الزمن ؟ كلنا يعلم أن الصلة بين نتائج البحوث

العلمية و بين حياتنا اليومية إذا أمكن إهمالها أو التغاضى عنها فى القرون الوسطى لضآلتها فى ذلك العهد ، أقول إذا أمكن ذلك فى القرون الوسطى فقد صار غير ممكن فى عصرنا الحالى فكل ما يحيط بنا فى حياتنا الحديثة أو جله مرتبط بالعلم بل وناتج عنه والعلماء إذا استطاعوا أن يعيشوا فى بروجهم العاجية فى القرن السادس عشر دون أن تزعجهم ضوضاء الحياة المحيطة بهم فانهم لن يستطيعوا ذلك اليوم وقد ارتفعت جلبة حياة الأمم والأفراد بحيث لم تعد تبقى العلماء منها بروجهم ولا صوامعهم . والغريب فى هذا الأمر أن هذه الجلبة التى أصبحت تقلق راحة العلماء إنما هى نتيجة لما فعلته أيديهم فهم مع حرصهم الشديد على عيشتهم الهادئة ليتفرغوا للعلم والبحث العلمى قد أعطوا المجتمع نتائج بحوثهم فلم يلبث أن استخدم هذه النتائج فى إحداث تلك الجلبة التى تعكر على العلماء صفوهم وتكدر هدوءهم ، والأدهى من ذلك أن هؤلاء الذين يحدثون الجلبة بطياراتهم وسياراتهم و يعكرون صفو الحياة بدباباتهم ومدافعهم قد بدأوا يحدثون نوعا جديدا من الصخب فى أقوالهم ، فهم يزعمون أن دؤلاء العلماء الوادعين الهادئين هم المسئولون عن هذه الآلات المستحدثة التى تضج بها الأرض والسماء وهم يلقون التبعة على العلم والعلماء فيما استحدثوه من آلات مهلكة وأدوات مفزعة . وأظن القراء يوافقوننى على أنه إزاء هذا كله لم يعد من الممكن للعلم أن يحتفظ بموقفه التقليدى إزاء المجتمع وأن يبقى العلماء قابعين فى صوامعهم و بروجهم العاجية بل صار عليهم أن يتبصروا ما حولهم وأن يعيدوا النظر فى موقفهم إن لم يكن لسبب آخر غير الاحتفاظ بهدوءهم وراحة بالهم . على العالم إذن أن ينظم العلاقة بينه و بين المجتمع وعلى العلماء أن يدرسوا هذه العلاقة وأن يحددوا ما ينبغى أن يكون عليه الحال بين العلم والمجتمع وأن يوجهوا مجهوداتهم فى هذا السبيل توجيها صحيحا يكفل للعلم النماء و يؤدى بالبشر إلى الرخاء .

و يظهر لى أن أول نقطة جديرة بالبحث فى هذا الصدد إنما هى المسئولية الأخلاقية التى تقع على عاتق العلم والعلماء ، أو يظن أنها تقع على عاتقهم إزاء تلك الآلات والمخترعات الجهنمية التى ترمى الى إهلاك البشر وتعذيبهم ، وهنا يجدر بالمفكر أن يفرق بين العلم البحت الذى يرمى الى المعرفة لذاتها والى نوع آخر من المجهود البشرى له صلة بالعلم وان لم يكن منه فى شىء ، وأقصد به الاختراع أو العلم التطبيقى كما يسمى . و يتميز العلم التطبيقى عن العلم الصحيح أو العلم البحت بالغرض الذى ينشده والهدف الذى يسعى إليه . فالاختراع أو العلم التطبيقى لا ينشد الحقيقة ولا المعرفة و إنما يطلب شيئا آخر هو استحداث آلة أو وسيلة تمكن صاحبها من فعل معين كالطيران فى الجو أو الغوص فى الماء أو تدمير هدف أو تسميم نفر من الناس أو غير ذلك من الأغراض التى يسعى إليها الساعون . والنقطة الجوهرية فى هذا الموضوع أنه لولا المعرفة التى يصل إليها العلماء لما تمكن المخترع من استحداث آلته ، فإذا كانت الآلة ضارة أو مهلكة جعل العلم مسئولا عنها بطريق غير مباشر ولا شك

فى أن المسئولية الحقيقية فى استخدام مثل هـــذه الآلات إنما تقع على الذين يقومون على صنعها وعلى استخدامها فى التدمير والتعذيب . فكل علم يمكن أن يستخدم فى الخير كما يمكن أن يستخدم فى الشر ، وكل ما يمكن أن نطلبه الى العلماء أن يبينوا الأخطار التى تنجم عن تطبيق علمهم فى اختراع مثل هذه الآلات . وعلى القائمين على تنظيم التعاون العالمى أن يسنوا القوانين لدرء هذه الأخطار وأن يعاملوا من تحدثه نفسه باستخدام نتائج العلم فى التدمير والتخريب معاملة المجرم سواء بسواء وأن يكون لديهم من سلطة التنفيذ ما يمكنهم من معاقبة هؤلاء المجرمين والقضاء عليهم وقطع دابرهم . والنظام القائم الآن فى الأمم المختلفة يسمح لكل مخترع باختراع ما يشاء من آلات كما يسمح له بتسجيل اختراعه بحيث يصبح له الحق فى الحصول على الفائدة المالية التى تنشأ عن استخدام اختراعه .

ولا تفرق القوانين الحالية بين المخترعات المختلفة ضارها ونافعها . وأكثر من ذلك تقوم كل حكومة بتشـجيع المخترعين فى استحداث وسائل التدمير والتخريب ، وترصـد لذلك الأموال فى ميزانياتها ، ويتسابق الجميع فى هذا الميدان تسابقا عنيفا . ولا شك فى أن هـذا النظام فاسد يجب تغييره إذا كانت الأمم جادة فى طلب التعاون العالمى كما يجب أن يحل محله نظـام آخر مبنى على تفرقة واضحـة بين ما هو مشروع وما ليس بمشروع فى الاختراعات والوسائل المستحدثة ، فإذا وضع نظام كهذا وتعاونت الأمم على تنفيذه باخلاص ، وكانت لديها الوسائل الناجعة لضمان تطبيقه ؛ أقول إذا حدث كل هـــذا فإن المخترعين سيتجهون باختراعاتهم فى النواحى المشروعة ، وتكون بذلك قد وجهناهم توجيها صحيحا نحو فائدة البشرية ، ويجب أن تعامل الحكومات فى هـذا معاملة الأفراد ســواء بسواء . فالحكومة التى تشجع المخترعات الضارة تعتبر حكومة مجرمة ويحال بينها وبين غرضها الدنىء بما يكون لدى القائمين على تنفيذ هذا النظام من وسائل السلطة المشروعة . ولست أزعم أن هذا النظام كفيل بمنع كل اختراع ضار بالبشرية ، فالقانون والعقوبة لا يمنعـان من ارتكاب الجريمة على وجه الإطلاق ، ولا شك فى أن بعض الحكومات أو بعض الأفراد ستحدثهم نفوسهم الشريرة بالخروج على القانون وارتكاب جريمة لاختراع المهلك إلا أن هؤلاء سيكونون أقلية يستهجنها الرأى العـام بين الأمم ويوقع بهـا العقاب المنصوص فى مواد القوانين . ولعل بعض القراء سـيظننى مستغرقا فى الخيال حين أتكلم عن معاقبـة الحكومات إلا أننى كما ذكرت فى أول المقال لا أتعرض لموضوع التعـاون بين الأمم من ناحية إمكانيته أو استحالته ، بل أتكلم عمـا ينبغى أن يكون ، وإذن فلا يمكن أن يقوم اعتراض على قول مبنى على افتراض عدم احتمال التعـاون .

إذن فالعـلم إنمـا يرمى إلى المعرفة ، ولا يمكن أن يتهم بالتخريب والمخترعون ومن يقومون على تمويلهم وتشـجيعهم هم الذين تقع عليهم التبعـة الأولى ، وهؤلاء إذا نظمت

أمورهم ووضع لهم قانون نافذ ترتضيه الأمم وتسهر عليه استقام الحال . هذه هى الخلاصة . ولكن أليس معنى هذا أن العلماء إنما يتخلصون بذلك من كل تبعة و يلقونها على غيرهم خطأ أم صوابا ثم يتركون الأمر والتنظيم لغيرهم ويعودون إلى صوامعهم و إلى موقفهم التقليدى إزاء المجتمع ، و إذا كان الأمر كذلك وأخشى أنه كذلك فما هو الدور الإيجابى الذى يريد العلماء أن يقوموا به فى التعاون العالمى .

أذكر أنى حضرت مؤتمرا عقد فى لندن حوالى عام ١٩٣٠ سمى المؤتمر الأول لتاريخ العلوم وقد حضر هذا المؤتمر نفر غير قليل من العلماء قادمين من أمم متعددة . فى هذا المؤتمر سمعت الخطباء يضربون على نغمة واحدة ألا وهى أن تاريخ العلوم يجب أن يعنى به العناية كلها لأن التقدم العلمى أهم بكثير للبشرية من الحروب التى يسجلها التاريخ ، وقد كان الغرض الأول من عقد هذا المؤتمر إثارة اهتمام الناس بتاريخ العلوم وتوجيه الجامعات والمدارس نحو العناية بهذه الناحية من نواحى التاريخ . وقد ذكر الخطباء وكرروا أن العلم هو الذى أعطى المجتمع البشرى جل ما يملك من وسائل الحضارة والرفاهية وعابوا على المجتمع أن ينكر جميل العلم والعلماء فلا يحفل بأمر تاريخ العلوم فى حين أنه يعنى العناية كلها بتاريخ الملوك والأمراء وما يحدث بينهم من حروب ومعاهدات وأشياء أخرى كثيرة هى فى الواقع ونفس الأمر قليلة الأهمية تكاد تكون تافهة فى تاريخ تطور البشرية إذا قيست بتاريخ العلم والاختراع . وقد تساءل بعض المتكلمين أيهما كان أكبر أثرا فى تطور البشرية حروب نابليون أم اختراع جيمس وات للآلة البخارية؟ ولماذا نحن نلقن أطفالنا ما حدث لنابليون فى حياته العامة من أحداث حربية وسياسية بل إننا لنزيد على ذلك ما حدث له فى حياته الخاصة من أمور عادية ؟ لماذا نفعل كل ذلك ولا نلقن النشء كلمة واحدة عن تاريخ اختراع الآلة البخارية وعن حياة ذلك المخترع العظيم جيمس وات وما بذله من مجهود مضن فى عمله المجيد . رجل يقتل الناس ويرمل النساء وييتم الأطفال نعده بطلا ونعنى بشأنه العناية كلها وآخر يرفه عن الناس ويجلب لهم الخير والحرية والسعادة فلا نكاد نذكره او نتحدث عنه ! ولا شك أن هذا التساؤل ينطوى على منطق قوى و إدراك صحيح لقيم الأشياء إلا أنى لاحظت أن هؤلاء الخطباء فى ذلك المؤتمر بالرغم من قوة منطقهم وصحة تفكيرهم لم يصلوا إلى شىء يذكر من وراء عقد مؤتمرهم . فالمؤتمر نظر إليه كاجتماع عادى لطائفة من العلماء تنازل أحد وزراء الدولة بافتتاحه ثم ألقيت الخطب وانتهى الاجتماع على ما انتهى إليه أمثاله من اجتماعات العلماء و بقيت مناهج الدراسة والامتحانات العامة فى سائر الأمم تعنى بأمر نابليون وتهمل أمر جيمس وات . وقد دار بينى و بين بعض المؤتمرين فى ذلك الحين حديث قوامه هذا الإعراض من جانب المجتمع عن أمر العلم والعلماء وهذا الاعتكاف عن المجتمع من جانب العلماء أنفسهم . ثم تساءلنا إذا كان العلم يمنح المجتمع كل أسباب الرفاهية ، فلماذا لا يكون هو صاحب السلطان فى تنظيم

هذه الزاهية التى هو أصلها ومنبع معينها؟ ولماذا يعطى العلم للمجتمع النور الكهربائى والقدرة الكهربائية كهبة خالصة لوجه الله تعالى. هذه الهبة التى يقدر ريعها السنوى بمئات الملايين من الجنيهات ثم هو بعد ذلك يعود فيستجدى المجتمع بضعة قروش أو جنيهات ليصرفها فى البحث العلمى . ألم يكن أولى به ألا يهب شيئا وأن يحتفظ لنفسه بكل شىء أو على الأقل أن يحتفظ لنفسه من الهبة بقدر حاجته ؟ هذه هى الأسئلة التى عنت لنا ولا تزال تعن للفكر كلما أمعن النظر فى العلاقة التى ينبغى أن تكون بين العلم والمجتمع فلما أعلنت الحرب الحالية نشأ إلى جانب هذه الأسئلة سؤال آخر هام هو الآتى : أيستطيع العلم والعلماء أن يقفوا منعزلين عما هو حادث فى العالم اليوم من تخريب وتدمير خصوصا إذا لاحظنا أن ما وهبوه للمجتمع من العلم هو السبب الأول الذى لولاه لما أمكن هذا التدمير .

وأليس من واجبهم وهم قوم قد جبلوا على حب الخير والحق أن يبذلوا قصارى جهدهم كى لا تتكرر المأساة الحالية وهى إن تكررت كانت فى الغالب أدهى وأمر ، لنفرض أن رجال السياسة ورجال الأعمال بعد هذه الحرب لم يفلحوا فى أن يحققوا التعاون العالمى المنشود بين الأمم ، أليس العلماء فى مركز يسمح لهم بانقاذ البشرية من سوء هذه العاقبة .

قبل أن أحاول الإجابة على هذه الأسئلة سأصف الكيفية التى يتبعها العلماء فى منح ثمرات عقولهم الى المجتمع والطريقة التى يسير عليها المجتمع فى الاستفادة من هذه الثمرات .

نعلم أن الأديب أو الشاعر أو المؤلف الموسيقى اذا ألف كتابا أو رواية مسرحية أو قطعة موسيقية فإن القوانين الوضعية فى معظم البلاد المتحضرة تجعل لهم حقوقا مصونة ولو الى حين بحيث لا يستطيع ناشر أو مخرج أو عازف أن يستفيد من هذا الانتاج العقلى استفادة مادية بغير رضاء المؤلف ، هذا هو الحال فى الأدب والموسيقى .

أما فى الإنتاج العلمى البحت فالأمر على عكس ذلك ، نفرض أن عالما كشف عن قانون من قوانين الطبيعة أو عن ظاهرة من الظواهر التى لم تكن تعرف من قبل ، اذا حدث ذلك ، وهو حادث فى كل يوم ، فان هذا العالم يرسل عمله الى إحدى الجمعيات أو المجلات العلمية فتنشره على الملأ ويكتفى العالم من عمله باللذة الفكرية التى تعود عليه بالفخر والتكريم الذى يناله بين مصاف العلماء ، وقد تمنحه إحدى الهيئات لقبا أو مدالية أو إحدى الحكومات وساما أو رتبة وان كان من الطراز الأول بين العلماء فربما منح جائزة نوبل وهى جائزة مالية لا تتعدى قيمتها بضعة آلاف من الجنيهات .

هذا هو كل ما يعود عليه من فائدة أدبية أو مادية ، ولنفرض أن مخترعا اطلع على عمل هذا العالم المنشور فى المجلة العلمية واستخدم هذا العلم الجديد فى اختراع آلة لها خطرها وأثرها فى حياة المجتمع ، إن القوانين والتقاليد الحالية لا تعطى للعالم صاحب الكشف الأول

ولا للجمعية العلمية التى نشرت بحثه ولا للجامعة التى ينتسب إليها أى حق من الحقوق المدنية إزاء هذا المخترع الذى استفاد من مجهوداتهم جميعا .

وقد حدث هـذا مرارا وتكرارا بل هو حادث فى كل يوم ومن الأمثلة الظاهرة عليه الراديو أو التخاطب اللاسلكى ، فصاحب الفضل الأول فى هـذا الاختراع انما هو العـالم الاسكتلندى كلارك ماكسويل الذى قال لأول مرة بوجود أمواج كهربائية تنتقل فى الفضاء بسرعة الضوء ثم تبعه هاينرخ هيرتز العـالم الألمـانى وهو الذى أثبت وجود هـذه الأمواج كحقيقة واقعة ودرس خواصها وما لها من صفات .

وقد قنع كل من ماكسويل وهيرتز من عملهما باللذة الفكرية والفخر العلمى ، ثم جاء ماركونى وغيره من المخترعين فاستغلوا نتائج أبحاثهما وأبحاث غيرهما من العلماء استغلالا ماديا عاد عليهم وعلى غيرهم بالربح الوفير ، أردت أن أشرح هذه النقطة لما لها من ارتباط وثيق بالموضوع الذى نحن بصدده .

وبعد فهل نغير قوانيننا ونظمنا بعد الحرب بما يجعل لكل عالم ملكية ما يصل اليه من كشف فى بحوثه العلمية . أم هل نحول مجامعنا وجمعياتنا العلمية الى شركات مساهمة تفرض ضريبة على كل من يستخدم نتائج البحث العلمى لغرض من الأغراض المـادية .

يعلم القراء أنه فى مصر القديمة كان العلم وقفا على نفر قليل من رجال الدين وزعماء الدولة ففى ذلك العصر البعيد المحوط بكثير من الشك كان رجال الدين ورجال الدولة يعلمون ما للعلم من قوة وسلطان وينظرون اليـه كسلاح يستعينون به على الحكم ويخضعون به الناس للكنيسة وللدولة .

هكذا كانت حالهم فى ذلك العهد ولاشك فى أننا اليوم وان أعجبنا بدهاء هؤلاء الزعماء ومقدرتهم إلا أننا بعيدون كل البعد عن أن ننظر الى العلم هذه النظرة الشاذة البغيضة ، بل نحن على النقيض من ذلك ننظر الى العلم نظرتنا الى الهواء أو الى النور ونجعـله حقا طبيعيا لكل انسان ونرى فى انتشاره بين الناس تعميما للخير وقضاء على شر من أعظم الشرور وافتكها بالبشرية وهو الجهل .

فالعلم إذن نور يجب أن يشع وخير يجب أن يعم وأول واجب على العلماء إنما هو حمل شعلة العرفان ونشر ضيائها وتبديد غياهب الجهالة ، وليس يعقل أن نرجع فى تفكيرنا الى عصر المصريين القدماء أكثر من أن نرجع الى عهد السحر والتنجيم .

ومع هذا فاننا نشعر جميعا أن القدرة الناشئة عن العلم يجب ألا تكون فى متناول كل سفيه يعبث بها كيف شاء بل يجب أن تحاط بسياج يعصمها ويعصم الناس من كل عبث بهـا

وبالناس من كل محاولة لاستخدامها فى الضار دون النافع فالشخص الذى يمنح القوة والسلطة يجب فى الوقت ذاته أن يؤتى الحكمة وأن يكون له مثل عليا تعصمه من البطش وتقى الناس شر طغيانه والا فسدت الأرض وعم الخراب .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نعلم أن العلم والحكمة مقترنان من قديم الزمان حتى يكادان يترادفان والفلسفة مرادف ثالث لهما وقد نشأ العلم الحديث كفرع من فروع الحكمة أو الفلسفة سمى الفلسفة الطبيعية ولا تزال الجامعات الى اليوم تستخدم لفظ الفلسفة بمعنى العلم حين تمنح درجات الدكتوراه فى الفلسفة ، فقد كان العلماء ولا يزالون يتحلون بصفات نفسية وخلقية تعتبر ملازمة لصفتهم كعلماء . فالعلم والفضل والخلق القويم كل هذه توائم لا انفصال لها . و إذن فلا يكفى أن يعطى العلماء علمهم الى المجتمع مجردا ، بل عليهم أن يعطوا الى جانبه تلك الصفات الخلقية السامية التى هى جديرة بالعلم وقرينة ، بل متممة له . وليس هذا لمعنى جديدا ، بل هو شائع ومعروف فمدارسنا وجاماتنا وان كانت دورا للعلم إلا أنها فى الوقت ذاته دور للأخلاق . وتلقين المعرفة منذ الصغر يقترن بالتربية التى هى التقويم أو تكوين الخلق كما يقول المربون . و يظهر لى أن فى هذا المعنى البسيط مفتاح المشكلة التى نحن بصددها . فالمأساة التى نشاهدها حولنا اليوم والفتك الذريع بالبشرية والآلات المهلكة التى تنسب الى العلم كل أولئك مرتبط ارتباطا جوهريا بوجوب اقتران العلم بالقانون الخلقى . أو بعبارة أخرى إن هذا التدمير وهذه الفظائع هى نتيجة فصل العلم عن القانون الخلقى . والعلماء لم يعد لهم أن ينظروا الى أنفسهم كطلاب للمعرفة فحسب بل عليهم أن يذكروا واجبا آخر هو الدفاع عن المبادئ الخلقية القويمة وكما أن على العالم أن ينشر علمه بين الناس وأن يحميه ويدافع عنه بل ويضحى من أجله ، كذلك عليه فى الوقت ذاته أن ينشر المبادئ الخلقية القويمة وأن يدافع عنها ويضحى من أجلها وإذا ذكرت الأخلاق والمبادئ الخلقية فإنما أقصدها بأوسع معانيها فالقانون الخلقى ينظم سلوك الأفراد كما ينظم سلوك الجماعات وهو ينظم سلوك الأمم المختلفة فيما بينها ولا شك فى أننا فى حاجة اليوم الى تطبيق المبادئ الخلقية فى مدى أوسع ، ففى الماضى كانت الحياة تختلف اختلافا بينا عما هى عليه الآن وكان سلوك الفرد مع أخيه أو جاره محدودا بظروف الحياة فى تلك العصور وكان سلوك مجتمع نحو آخر أكثر تحديدا . أما اليوم فقد اتصل الأفراد فى المجتمع الواحد اتصالا وثيقا كما اتصلت الأمم فى أنحاء المعمورة وسهلت وسائل الانتقال وأصبح من اليسير التراسل والتخاطب بين الدارات كل هذا قد وسع مدى تطبيق المبادئ الخلقية وأنشأ مشاكل جديدة لم تكن تخطر فى الماضى على بال . وقد ترك تنظيم هذه الأمور إما للصدفة العامة أو للأمم فيما بينها تحكم فيه القوة ، أو لرجال السياسة والمشرعين يعقدون المؤتمرات عساهم يصلون الى حل عملى يرضى القوى ويسلم به الضعيف وقد نشأ عن ذلك مجموعة من القوانين

الدولية الخاصة والعامة ربما كانت خير مثال على مقدرة الانسان اللانهائية على أن يناقض نفسه . لا أقول هذا لأقلل من شأن المجهود الذى بذل بل بالعكس أنى أعلم أن هذا المجهود قد بذل فى ظروف مضنية كما أن الذين قاموا به لا يمكن أن يوجه اليهم أى لوم لأنهم قاموا بواجبهم على قدر الاستطاعة و إنما يوجه اللوم ان كان هناك لوم إلى شخص معنوى مجهول لأنه لم يخرج لنا كتابا يبين فيه حكم القانون الخلقى القويم فى هذه الأمور . ولا يمكن الاعتماد على المؤتمرات الدولية لتسوية هذه الأمور دون قانون خلقى مسلم به من الجميع لأن هذه المؤتمرات كما تعلمون كثيرا ما تصل الى نتائج لا تتفق وقانون العدالة البشرية كما أنها فى بعض الأحايين تخفق فى مهمتها إخفاقا تاما ولعل القراء يذكرون مؤتمر المواصلات السلكية واللاسلكية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٣٨ والذى أخفق فى تحقيق الغرض المنشود منه . فمن المسائل التى كان يطلب الى هذا المؤتمر تنظيمها مسألة الإذاعة اللاسلكية ومنع الاختلاط والتشويش بين محطات الإذاعة فى أنحاء المعمورة وهى مسألة لو تركت الى علماء منزهين عن الغرض لما عجزوا عن حلها على أساس قانون العدالة بين الأمم .

وقبيل هذه الحرب نشأت حركة بين العلماء فى انجلترا وفى بعض البلاد الأخرى ترمى إلى إبراز ما هو كامن فى نفوس الجميع من قواعد أخلاقية ثابتة أساسها حب الحق وحب العدل وحب الانسانية وقد نشرت مجلة (Nature) الانجليزية وهى مجلة لها مقامها فى العالم العلمى ، نشرت هذه المجلة مبادئ اقترحت لتكون نوعا من الدستور بين العلماء ولم يكن فى هذه المبادئ شيء جديد بل جاءت كما قلت مبرزة لما هو كامن فى النفوس ولما هو مفترض عادة بين رجال العلم بل و بين رجال الفضل ورجال الأخلاق والمروءة ، فى الأمم جميعها ، هذه المبادئ الكامنة فى النفوس دعت الحاجة إلى إبرازها وتدوينها ونصها نصا صريحا صيانة لها من العبث ولتكون أساسا واضحا يعمل به كل عالم ويدعو اليه ولا تكاد هذه المبادئ كما تقدمت تخرج عما هو مسلم به من الجميع ، كمبدأ حرية الفكر ومبدأ حرية العمل بما لا يتعارض ومصلحة الغير ، ومبدأ تحكيم العقل والمنطق فيما يشكل من الأمور ، ومبدأ تطلب العدالة والانصاف فى المعاملة بين الناس ، ومبدأ عدم الإضرار بالغير وأمثالها من القواعد العامة التى يسلم بها كل عاقل منصف . هذه الحركة الخلقية كما تصح أن نسميها نشأت بين العلماء لأنهم شعروا بأن عليهم مسئولية لم يعد من الممكن التغاضى عنها هى مسئولية الدعوة إلى الخير والحق والدفاع عنهما و بعد نشر هذه المبادئ فى مجلة (Nature) وردت خطابات ورسائل متعددة من جميع أنحاء العالم تشير بعضها فى نفس المجلة وكلها معضدة للفكرة ومحبذة لها ، ثم جاءت الحرب فاتجه العلماء فى بلادهم المختلفة نحو مساعدة أممهم على كسبها و بذل قصارى ما يستطيعون من جهد عقلى وجثمانى فى خدمة البلاد التى ينتمون اليها ، ولعل القراء يعلمون أن من أميز مميزات هذه الحرب كثرة عدد العلماء فى فروع العلم المختلفة الذين يقومون بالخدمة

الفعلية فى ميادين القتال أو فى القيادات العامة أو فى الأسلحة الفنية المختلفة للجيوش البرية والأساطيل البحرية والجوية ، فأساتذة الجامعات اليوم والباحثون فى العلم والمتخصصون الفنيون فى الطبيعة وفى الكيماء وفى البيولوجيا بل والشباب المتخرج حديثا من الجامعات كل يشتغل فى دائرة اختصاصه ويستخدم مواهبه فى خدمة أمته ، وقد قابلت أخيرا أكثر من واحد من أساتذة الجامعات البريطانية فى مصر فوجدتهم يرتدون ملابسهم العسكرية ويقومون بأعمال فنية تتناسب ومقدرتهم الفكرية فالعالم الرياضى يستخدم علمه فى حل المسائل الرياضية الكثيرة التى تنشأ عن الحرب والعالم البيولوجى كذلك يضع خبرته الفنية تحت تصرف بلده والكيميائى كذلك وهم جميعا يشعرون بأن هذه الحرب تتوقف نتيجتها إلى حد بعيد على المقدرة الفنية والعلمية للأمم المتحاربة .

فالعلماء إذن قد خرجوا من صوامعهم مختارين أو مرغمين واختلطوا بتيار المجتمع فى أعنف صورة وأشدها اتصالا بمعترك الحياة ، وإذا وضعت الحرب أوزارها فهل يعقل أو ينتظر أن يعود كل واحد من هؤلاء إلى عمله ويدعى ما رآه وما سمعه وما خبره بنفسه فى هذه الحرب الطاحنة كان لم يكن شئ من ذلك أو كأنه حلم مفزع قد انقضى ، أم أن الذى تنتظره هو العكس ، فالعلماء وهم قوم ذوو بصائر لن تسمح لهم ضمائرهم ولا عقولهم بأن يتركوا العالم يتعرض مرة أخرى لمثل هذه الفاجعة دون أن يحركوا ساكنا وعلى الخصوص لأنهم يعلمون أن العلم والاختراع مسئولان إلى حد كبير عن كثير من الدمار والتدمير والمنتظر أن تعود الحركة التى بدأت قبيل الحرب والتى أشرت اليها إلى الظهور بشكل أوسع وأن يكون لها أثرها الفعال فى تنظيم التعاون بين الأمم ولا شك فى أن العلماء إذا هم تساندوا فى أقطار الأرض وتعاونوا فإنهم قادرون على أن يحولوا بين ذوى المطامع والشهوات من رجال السياسة والمال وبين الفتك بالمجتمع ، أول إذا تساندوا لأن هذا شرط أساسى لنجاحهم فالعلم يملك السلاح الذى يستطيع به أن يدافع عن قضية الحق والعدل والفضيلة ، ولا شك عندى فى أنه فى آخر الأمر منتصر على قوى الظلم والجهالة والاستعباد ، ولا أستطيع أن أتنبأ بالشكل الذى سيتخذه تيار الحوادث فى هذا الصدد . ولكن من المتصور على سبيل المثال أن تصر الهيئات العلمية فى العالم على منع كل عابث من استخدام نتائج العلم للاضرار بالبشر ، فاذا اتخذت هذه الهيئات موقفا حازما إزاء هذا الموضوع الخطير فانها ولا شك تستطيع أن تضع الأمور فى نصابها إذ أن الرأى العام فى العالم كله سيكون فى جانبها ، كذلك تستطيع هذه الهيئات أن تحرم على كل مشتغل بالعلم أن يقوم لحسابه الخاص أو لحساب شركة أو حكومة بالاشتراك فى أى عمل أو اختراع يرمى إلى التدمير والتخريب ويكون شأن العالم فى ذلك شأن الطبيب الذى لا تسمح له الهيئات الطبية باستخدام علمه وفنه فى الإضرار بالناس ، وعندى أن هذه الخطوة ربما كانت أول خطوة ينبغى اتخاذها بعد هذه الحرب لتوجيه العلم والعلماء نحو التعاون العالمى .

أشرت فى أول حديثى الى أن التعاون على مقياس دولى أساسه التعاون داخل كل أمة فيما بين أهلها ويحسن بنا فى مصر أن نذكر هذه الحقيقة إذا كنا نريد حتما أن نقوم بنصيبنا فى المجهود الدولى . فالكلام الذى قدمته عن التعاون بين علماء الأمم يقتضى أن يكون فى كل أمة هيئات علمية تمثل التعاون بين علماء هذه الأمة كما يجب أن تتعاون الهيئات داخل الأمة الواحدة وأن يكون لها نظام مشترك يوحد بين مجهوداتها ويحدد أهدافها ووسائل تعاونها . وفى مصر هيئات علمية نشأت أو أنشئت من حين لآخر وهى تقوم بمجهودات مختلفة فى ميادين العلم المتعددة إلا أن هذه الجهود لاتزال فى حاجة الى تنسيق وتوجيه وتنظيم . فنحن فى حاجة الى مجمع علمى تمثل فيه مجهوداتنا المبتكرة وأبحاثنا فى ميادين العلم المختلفة . نحن فى حاجة الى هذا المجمع إذ بدونه لايمكن أن يقال إن لنا حياة علمية قومية وقد شرحت هذه النقطة فى محاضرتى التى ألقيتها من هذا المكان فى العام الماضى عن المستقبل العلمى فى مصر . ونحن فى حاجة أيضا كما ذكرت من قبل الى هيأة تنظم العلاقة بين العلم البحت أو الأكاديمى و بين العلم التطبيقى فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها . كل ذلك قد شرحته فى محاضرتى الماضية فلا حاجة بى الى أن أكرر القول . فتنظيم المجهود الداخلى أساس كل تعاون خارجى و كما أن الرجل الذى يعيش فى بيت غير منظم لايستطيع أن يكون منتظما فى علاقاته مع الناس كذلك الأمة التى لاتنظم بيتها لايتيسر منها أن تتعاون تعاونا منتجا فى نظام عالمى . أما إذا نظمنا أمورنا العلمية على النحو الذى أشرت اليه فاننا نستطيع أن نوجه العلم والعلماء بيننا فى الاتجاهات التى بينتها وعندئذ يتعاون علماؤنا وعلماء غيرنا من الأمم لتحقيق تعاون عالمى ٠

على مصطفى مشرفه
عميد كلية العلوم

التصوّف

ليس التصوّف لبس الصوف ترقعه   ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب   ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا
لكنما هو أن تصفو بلا كدر   وتعرف الحق والقرآن والدينا

سيدة الموسم

ذلك اسم رواية عرضت فى سينما بالقاهرة ، وددت لو شاهدتها كل سيدة وكل فتاة ، ولا سيما أولئك اللواتى يسمون " المرأة الجديدة " أو " الفتاة المودرن " أولئك اللائى يردن أن يتكرن جنسهن وغرائزهن ووظيفتهن الطبيعية فى الحياة !

نعم ووددت لو شاهدتها فتيات الجامعة ، وفتيات المدارس الثانوية ، وفتيات "الميردى ديبه " وما إليها . ومنهن من يتحدثن عن " المطبخ " كما يتحدثن عن إحدى الخرافات الزائلة ، ويتنصلن من معرفة شؤونه كما يتنصلن من أمر مزر بالكرامة !

و " سيدة الموسم " امرأة عصرية مثقفة إلى أبعد حدود الثقافة ، تشتغل بالمسائل العامة ، وتحضر الحفلات ، وتشترك فى المشاكل الدولية ، وتتنقل بالطيارة ، وتتصل بقادة الشعوب ، ونلتفت إليها الأنظار ، ويتوجه إليها الاهتمام ، وتهدى إليها الياشين ... ... إلى آخر ما تستطيع امرأة أن تظفر فى المجتمع وأن تنجح فى هذا الظهور .

ولكن المرأة امرأة على أية حال ، فهى تأوى إلى رجل تتخذه زوجا ، إلا أنها لا تجد من وقتها ولا من اهتمامها ما تمنحه لهذا الزوج ، وحتى ليلة الزفاف تزدحم الدار برجال المجتمع والسياسة ، والرجل رجل على كل حال ، فهو لا يطيق هذه الحياة ، ولا يحس بقيمة الزواج ، أولى له أن ينصرف عنها وأن يعتزل حياتها العامة وينفرد كما كان يعيش قبل هذا الزواج الاسمى السخيف ! .

وحين تستيقظ شخصية المرأة فى نفس " سيدة الموسم " تسرع وراء زوجها ، تبحث عنه ، وتحاول أن تكون امرأته ، وأن تسترده من عزلته ، وتهم أن تقوم له بأبسط وظائف المرأة ، وأن تهيىء له فطورا ، فتصيبها " اللخمة " لأنها إنما نجحت فى المجتمع على حساب وظائفها ، فتبكى وتدرك يومئذ صحة ما قاله رجلها وهو " أن سيدة المجتمع ليست امرأة " .

تلك هى القصة ، وهى قصة كل امرأة تفسد فطرتها ، فتستصغر "مملكة البيت" وتحتقرها ، وتحسب أن "مملكة الطريق" أعظم وأشرف منها . تلك التى تجتذبها أنوار الطريق فتعشى عينيها وتنسيها ما فى حياة البيت من هدوء وجمال وسعادة . تلك التى تحسب البيت سجنا يفرضه الرجل عليها ، وتظن القيام بوظيفتها فيه تسخيرا واستبدادا لا تخضع لها المرأة المثقفة . تلك التى تضل عن ميولها الطبيعية وتكفر بحكمة الطبيعة فى خلق الذكر والأنثى !

للمرأة أن تتعلم ، وللمرأة أن تشعر بكرامتها ، وللمرأة أن تستمسك بحقوقها ، ولكن عليها أن تذكر مع هذا كله أنها "امرأة" وليست رجلا ، وأن المجتمع لا يغنيها ولا يسلبها حقها ،

حين يمنحها مملكة البيت ، ويمنح الرجل مملكة الطريق ، وأن وظيفتها فى تكوين الأسرة وامتداد الحياة ليست بأقل من وظيفة الرجل ، وأنها لا تستطيع أن تكون أما وعاملة فى الميدان العام ، لأن الرجل لا يستطيع ذلك أيضا !

كلا ليس المجتمع ظالما للمرأة حين يشوط بها امتداد الحياة ، ورعاية الجيل الناشئ ، وصياغة آباء المستقبل وأمهاته ، ولن تشعر امرأة بحقارة هذا العمل العظيم إلا إذا فسدت فطرتها وشوهت غريزتها ، وفقدت كنز الأنوثة الثمين الذى أودعه الحياء قلبها الحنون !

من الذى يقول : إن المرأة الكادحة فى العمل المجاهدة فى المجتمع أوفر حظا وأكبر سعادة من تلك السيدة الخالدة إلى بيتها ، تنفث فيه السحر والإشراق ، وتشيع فيه البهجة والسعادة ، وتستمتع فيه بالثقة والاطمئنان وترى كيف تصنع على عينها زهراته الصغيرة من بنين و بنات ، وكيف تؤثر بشخصيتها فى الصغار والكبار !

إننى لأرثى للمرأة التى تقسو عليها الحياة فتخرجها إلى الطريق العام ، ولكننى لا أتصور كيف تختار امرأة لنفسها هذا المصير التعيس إذا كانت تملك سواه ؟ وكيف تحصل على زوج ثم تبقى فى الطريق العام ؟ كذلك تزاول العمل متى كان دخل زوجها يضمن لها الحياة ؟

إنها امرأة منكودة الحظ ولا شك تلك التى توازن بين الحياتين فتختار الثانية على الأولى — إذا كانت تملك الاختيار — و إن زوجها لأحمق إذا كان يجد الكفاية ثم يدع لها أن تزاول هذا العناء .

يا لبؤس الحياة ويا لسوء النظام الاجتماعى الذى يقذف بكلا الزوجين إلى الطريق !

إن كلا منهما لمخدوع إذن عن حقيقة نفسه ونوازع فطرته واتجاه غريزته ، إنهما لمصابان بدوار أو خمار اسمه "المجتمع الحديث" وهو نزعة من نزعات الشذوذ والانحلال .

وإنه لمن حسن الحظ أن يكون المجتمع المصرى نادر الإصابة بهذه اللعنة الوافدة ، ولكنه مع الأسف مصاب بتمرد معظم الفتيات المتعلمات على الشؤون المنزلية ، لأنها فى نظرهن دليل التأخر والجهل والجمود . تلك كارثة اجتماعية ولا شك ، يجب العمل الحازم الحاسم لمقاومتها فى عقول الفتيات ، و إذا لم تعالج انقلبت مقدمات أزمة الزواج التى نحسها إلى أزمة حقيقية ، لأن معظم الشبان لا يمكن أن يكون فى بيوتهم ط ه وعدد من الخدم ، ولا يرون معنى لتناول الطعام فى المطاعم بعد الزواج !

وهناك علاقة وثيقة بين دراية الفتاة بالتدبير المنزلى وبين الاقدام أو الإحجام عن الزواج، وقد ذكرت كاتبة انجليزية أن الاقبال على الزواج فى انجلترا قد تضاعف فى السنوات الأخيرة بسبب اقبال الفتيات الانجليزيات على إتقان فن المعيشة والاستغناء عن الخدم ، وعلى إثر عناية المدارس الانجليزية بجعل التدبير المنزلى فكرة أساسية فى برامجها .

وعلى ذكر المدرسة الانجليزية نذكر أن برامج مدارس البنات عندنا تحوى مادة "التدبير المنزلى" ولكنها "رسميات" لا أثر لهـا ولا نتيجة ! إنها حصة من الحصص النظرية على الأكثر لأن معلمة التدبير المنزلى نفسها قلما تعرف شيئا عمليا عن هذا التدبير ! وأين تعرفه وهى مشغولة بالمدرسة منذ أن كانت طفلة إلى أن صارت معلمة ! إن معلوماتها عن هـذا الموضوع مستقاة من الكتب أما المرانة العملية فليست لها خبرة بها . وليس المهم — مع هذا — أن تدرس التلميذة حصة عن "التدبير المنزلى" ولكن المهم أن تكون لها روح وميول منزلية ، أى أن تعتاد الحياة البيتية وتشعر بمزاياها وتشترك فى تدبيرها ، وهذا لا يتأتى إلا إذا تغير نظام مدارس البنات التى تعدّ تلميذاتها لحياة البيوت ، كمدارس الثقافة النسوية والتربية النسوية ، بحيث تصير الحياة فى هـذه المدارس أقرب إلى الحياة فى البيوت ، وتتولى المعلمات والتلميذات العمل فيها كما لو كن فى أسرة ومنزل ، أما الدروس العلمية النظرية فتكون فى فترات الفراغ من شؤون الدار ! .

إن تربية الجيل هى أعظم الوظائف وأخطرها ، فيجب أن ينال التعليم النسوى عندنا ما تستحقه هـذه الوظيفة من الاهتمام ، ويجب أن يعـدل تعليم البنات تعديلا أساسيا ، فمجرد وجود حصة للتـدبير المنزلى على الطريقة النظرية المتبعة الآن لا يؤثر أثرا محسوسا ، وإن جو المدرسة المصرية ليبعـد الحياة البيتية كل البعد عن نفس الفتاة وعقلها ، ويحيلها رجلا مشوها لا هو رجل ولا هو امرأة ، ويدعها تصطدم بعد ذلك فى حياتها المنزلية بمـا اصطدمت به "سيدة الموسم" بعد فوات الأوان !

وإنه لمن العجيب أن تحرص إنجلترا فى العصر الحديث على تكوين البنات للحياة المنزلية ، وأن تقبل الفتاة الانجليزية على اتقان فن المعيشة . بينما نحن حضراتنا — نوحد برامج الجنسين ونهمل فن المعيشة ، ونتشدق بضرورة اتحاد المرأة والرجل فى طريقة التعليم ! إنما نقلد فرنسا — ولا نتخذ عظة من انهيارها السريع — ونقلد الحياة المزيفة التى تعرضها علينا هوليوود فى رواياتها السينمائية ، ونفهم أنها هى الحياة الحديثة فى الأمم المتحضرة ، فيأخذ أبصارنا هذا البريق الخادع المكذوب . ولدينا أصابع تحمـل أقلاما رقيعة ، أو عابثة ، أو حمقاء ، تتخذ من القضايا المنطقية دليلا على مساواة الجنسين ، دون نظر إلى وظائف الطبيعة ، وحاجات المجتمع ، وقوانين الاقتصاد فى كل بيئة من البيئات .

ولو أفقنا قليلا من هذا الدوار ، وتفتحت أبصارنا على الكارثة التى تتهيأ لنا ببروز المرأة المصرية إلى الحياة الخارجية ، لتركنا هذا الضجيج العابث الأحمق إلى حين .

إن أول ما ينتظرنا من هذه الكارثة هو مزاحمة المرأة للرجل فى المجال الذى يضيق بالرجال وحدهم وتفاقم مشكلة التعطل نظرا لهذه المزاحمة . وليست المسألة مسألة سباق بين

الرجل والمرأة ، ولكنها مسألة تعاون على بناء مجتمع سليم . ولو كانت حركة العمل و لإنتاج فى حاجة إلى إخراج المرأة من البيت إلى الطريق لحنت الكارثة ، ولكن المجال ضيق ، وكل امرأة تعمل يقابلها رجل يتعطل ، وكل رجل يتعطل يقابله بيت يتهدم وأسرة تتحطم ، أو تقابله فتاة لا تجد الزوج الذى يؤسس أسرة لعجزه عن الإنفاق .

والعلاج المنطقى — على حسب هذا الوضع — أن تعمل المرأة و يتعطل الرجل ، وأن تبحث الفتاة العاملة عن شاب متعطل تتزوجه و تنفق عليه وتكون معه أسرة فى بناء المجتمع ! وهو منطق مضحك ظاهر السخف ، ولكنه منطق الواقع على هذا الأساس .

ثم الكارثة الثانية من اشتغال المرأة بالأعمال العامة وهى أن تتلقى جيلا من صنع الخدم فالأم المشغولة بعمل عام لن تجد من الوقت ولا من الجهد ما تربى به أطفالها ، وستضطر حينئذ أن تستعين بأيدى الخدم فى تربيتهم ، وسيكون لنا جيل حديث من صنع هذه الأيدى غير المأ ونة وغير المهذبة وغير الخبيرة بذلك الواجب العظيم .

و إنها لكارثة ولا شك أن يصير تعليم المرأة بالجيل الناشئ إلى هذا المصير ، فالأم الجاهلة خير من الخادمة الجاهلة على أية حال ، وطفل ينشأ فى حضن هذه الأم خير ألف مرة من طفل ينشأ فى حضن هذه الخادمة من جميع الوجوه .

ثم الكارثة الثالثة — من وراء اشتغال المرأة بالحياة العامة — وهى انهيار الحياة الزوجية أساس النظام الاجتماعى الشريف . فعلام يتزوج الرجل إذا كانت حياته بعد الزواج كحياته قبلها ، و إذا كان سيتناول طعامه من المطاعم أو من أيدى الخدم و إذا كان الجو المنزلى سيبقى خاويا كاسفا من المرأة الخاصة التى تنعشه ؟

أغلب الظن أنه سيستعيض عن الزواج المقيد بالصداقة المطلقة — وهو ما حدث لفرنسا قبل انهيارها — وسيعمر النادى والطريق على حساب الأسرة والبيت ، وستنحل العقدة المقدسة التى تدعو إليها حاجة الأليف للأليف .

إننا نقامر بأجمل ما خلقته لنا الطبيعة ، ونغامر فى سباق خاسر مع عوامل الهدم والفناء. و إنها لفتنة لا ننتبه إلى عواقبها الأليمة ، ولا نريد أن نتعظ فيها بالأمم المنهارة ، ولا أن نقتدى بالشعوب السليمة إذا عز علينا أن نستمسك بتقاليد الشرق ووحى الأديان ، لأن الدين والتقاليد — فى عرفنا — تأخر وجمود .

و إن رواية " سيدة الموسم " لهى روايتنا نحن ، و إننا لأحوج أهل الأرض إلى استخلاص العبرة منها ووقف العجلة المندفعة إلى الهاوية ، ونحن فى خمار أو دوار .

الإجرام فى مصر

لحضرة صاحب العزة محمد البابلى بك
مدير كلية البوليس الملكية

لقد أصبحت جناية القتل العمد فى الريف المصرى ، بحكم كثرة وقوعها ، أمرا عاديا الى درجة أنها أضحت لا تثير اهتماما خاصا لا فى الصحف ولا فى أوساط الجمهور . فبينما نرى أن جناية القتل فى انجلترا مثلا ، مهما بعُد مكان ارتكابها ، ما زالت تحتل مكانا ممتازا فى الصحف الكبرى ، مصورة فى شكل بارز ومشفوعة بعبارات وأوصاف لائقة للانظار ، نجد أن نظيرتها فى مصر لا تنال مثل هذا الاهتمام فى الصحف ما لم تكن تشتمل على ناحية ذات شأن خاص . ويمكن أن يقال مثل ذلك عن جمهور القروبين ، الذين أخشى أن يكون الكثيرون منهم أكثر اهتماما بما يبدو على الموكب المؤلف من رجال التحقيق وقوات البوليس من مظاهر خلابة . ونحن اذا رجعنا الى الاحصاءات الجنائية — وهى تعطينا ملسوبا ثابتا تقريبا فى خلال السبع السنوات الأخيرة — نصل الى النتائج الآتية :

أولا — ان جرائم القتل عمدا بدافع الانتقام تكون العنصر الغالب فى الإجرام المصرى بصفة عامة .

ثانيا — ان الجانب الأكبر من تلك الجرائم يرتكب فى الريف . ولو كان أمامنا رسم بيانى لاتضحت منه النسب الآتية :

(ا) ان نسبة تبلغ ٧٤ ٪ من مجموع الإجرام الجنائى ، سواء أكان مرتكبا ضد النفس أو المال ، ترتكب بدافع الانتقام . ويقابل ذلك فى انجلترا نسبة تبلغ ¼ ٪

(ب) ان نسبة تبلغ ٨٠ ٪ من مجموع ما يرتكب من الاجرام الجنائى فى الريف المصرى ترتكب بدافع الانتقام بينما ترتكب منه نسبة ١٨ ٪ لأسباب مادية و ٢ ٪ لأسباب خلقية .

(ج) ان مجموع جنايات القتل العمد والشروع فيه تكون نسبة ٣٩ ٪ من مجموع الإجرام الجنائى بالقطر بينما ترتفع هذه النسبة الى ٥٣ ٪ من مجموع الإجرام الجنائى الذى يرتكب بدافع الانتقام . وهذه النسبة عينها ترتفع فى الوجه القبلى

الى ٥٤ ٪ بينما تهبط فى الوجه البحرى الى ٣٥ ٪ تقريبا وذلك على الرغم من أن تعداد السكان فى الوجه البحرى يزيد عليه فى الوجه القبلى .

(د) ان نسبة تبلغ ٨٩ ٪ من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب فى الريف .

كذلك يتضح من الاحصاءات الجنائية نتائج أخرى منها :

١ — ان نسبة ٧٠ ٪ من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب مع الترصد أو سبق الاصرار وأن ٦٧ ٪ من هذا النوع الأخير يرتكب ليلا بينما أن ٦١ ٪ منه ترتكب فى المزارع خارج مساكن القرية .

٢ — ان نسبة ٧٠ ٪ أيضا من جنايات القتل العمد والشروع فيه ترتكب بواسطة الأسلحة النارية بينما ترتفع هذه النسبة الى ٩٠ ٪ تقريبا فى الجنايات المصحوبة بالترصد أو سبق الاصرار .

أما فيما يختص بالنسبة الى عدد السكان فانه يتضح أن هناك ٢٢٤ جناية قتل أو الشروع فى قتل عمدا مقابل كل مليون من السكان بينما يعادل هـذا الرقم فى انجلترا ٥ جنايات لكل مليون من الأهالى .

وأخيرا فيما يتعلق بنسبة الإجرام الى الزمن نجد أن المتوسط يكاد يبلغ على وجه التقريب جناية فى الساعة الواحدة ، وجناية قتل أو شروع فى قتل فى كل ثلاث ساعات .

على أنى قبل أن أنتقل من هذه النقطـة أود أن أحذر القراء من الاحصاءات الجنائية فانها ، على الرغم مما هو مسلم به من أنها خطوة لازمة لدراسة الإجرام ، كثيرا ما تخدع الباحث ، بحيث إن من الخطأ البين أن يسارع الانسان الى استنتاج النتائج من أرقامهـا المجردة قبل أن يكمل بحثه بدراسة وافية لكافة العوامل المختلفة التى تسبب الإجرام فمن المعروف أن الاحصاءات الجنائية فيها عيبان أساسيان أولهما أنها شديدة المرونة والثـانى أنها مضللة فى كثير من الأحيان وسأضرب بعض الأمثلة على ذلك .

فأما من حيث مرونتها فان من المدهش حقا أن نرى الاحصاءات قابلة لأن تلتوى ذات اليمين وذات الشمال بسهولة كثيرا ما جعلتها تصلح أساسا لرأيين متناقضين فى وقت واحد . ولقد صدق أحد الباحثين حيث قال إنك لتستطيع أن تصنع من الاحصاءات كل ما يعجبك فمن منضدة مربعة الشكل الى زوج من الحالات ، وها كم مثلا واحدا وهو خيالى محض يوضح كيف أن كلا من النقص والزيادة فى الإجرام يمكن أن يستخدم كلاهما لإثبات أمر واحد بعينه .

لنفرض أنى قصدت فى زمن غابر مديرا لأحد الأقاليم وقلت له إن هناك نقصا محسوسا فى رقم الجرائم فى مركز معين فإنك قد تراه وقد انبسطت أساريره وأجابك فى ابتسامة الثقة

ان ذلك يرجع الى ما بذله من مجهود واتخذه من إجراءات كان لها الفضل فى استتباب الأمن فى ذلك المركز ، فاذا ما عقبت بقولى إن الأرقام تدل على ازدياد كبير فى المركز المجاور فانى قد لا أسبب له بذلك أى ارتباك ، بل قد أراه على العكس وقد أجاب فى ابتسامة أكثر ثقة واطمئنانا أن هذه الزيادة إنما ترجع الى كفاية رجاله الذين تمكنوا بفضل جهودهم من كشف خفايا الكثير من الجرائم الدفينة الأمر الذى أدى الى اكتسابه لثقة الجمهور فأقبل الناس عليهم يبلغونهم من الحوادث ما كانوا من قبل يفضلون إبقاءه فى طى الكتمان .

أما من حيث كونها مضللة فان المشاهد أن الإحصاءات كثيرا ما تصور لنا فكرة خاطئة عن المقدار الحقيقى للإجرام إذ أنها تنغفل على الدوام ذكر الحوادث الناجحة تلك التى لا يدرى أحد عنها شيئا وتغفل أيضا الحوادث التى قد يعلم الناس بها ولكن لا يصل علمها الى البوليس لسبب من الأسباب الكثيرة كامتناع المجنى عليه أو الشاهد عن التبليغ عجزا منه أو خوفا أو إشفاقا على الجانى أو رغبة فى الانتقام قصاصا ولا شك أن مثل هذه الحالات تؤلف جانبا كبيرا من الإجرام .

ولا يقتصر تضليل الإحصاءات على مقدار الإجرام بل هو يمتد حتى الى نوعه فكثيرا ما يصور خطورة الجريمة أو أهميتها تصويرا خاطئا فالأم المهجورة التى تلجأ رغما عنها وخوفا من الفضيحة الى التخلص من مولودها تعتبر فى نظر الإحصاء الجنائى مرتكبة لجناية خطيرة جدا عقابها الإعدام ، واللص الذى يقتحم فى منتصف الليل منزلا مسكونا بطريق تسلق السور أو كسر الباب أو غير ذلك وهو مدجج بالسلاح من قمة رأسه الى أخمص قدمه قد لا يرتكب فى نظر القانون ، إلا جنحة بينما السائق الطائش الذى يعتبر بحق خطرا مهددا لأمن الناس وأرواحهم لا يزيد عمله على مخالفة تافهة ، بل قد لا يكون فيه جريمة على الإطلاق ، بل أن الإحصاء قد يخدعنا حتى فى بيان نسبة الإجرام الى تعداد السكان ما لم نجعل نصب أعيننا حقيقة واقعة هى أن أرقام الإحصاء لا تشير الى عدد الجرائم ذاتها أو الى عدد المجرمين بل الى عدد القضايا فى حين أن القضية الواحدة قد تشتمل على أكثر من جريمة واحدة أو مجرم واحد .

على أن الإحصاءات الجنائية على الرغم من عيوبها ما زالت تعتبر الأساس الذى ينبغى أن يبنى عليه كل درس صحيح لأسباب الإجرام .

الأسباب — والآن وقد وصلنا للكلام عن الأسباب ، علينا أن نسأل أنفسنا ، لماذا أصبح القتل ذائعا فى الريف المصرى الى هذا الحد ؟

لقد ظهر لنا من الإحصاء أن الانتقام وهو العامل المتغلب فى الإجرام المصرى بوجه عام وفى القتل العمد بوجه خاص عامل يرجع إلى العاطفة والشعور لا الى حب المادة ، وظهر

من الإحصاء أيضا أن ذلك العامل عامل الانتقام أشد ظهورا فى الوجه القبلى عنه فى الوجه البحرى، بل انه أكثر رجوحا حتى فى الأقاليم الجوية الجنوبية من الوجه القبلى كأسيوط وقنا عنه فى الأقاليم الشمالية، وقد لوحظ مثل ذلك تماما فى الإحصاءات الخاصة بالقارة الأوروبية حيث ترى الاجرام أرجح كفة فى الممالك والبلاد الجنوبية منه فى البلاد الشمالية، بل وفى المناطق الجنوبية من دولة بعينها فهل يستنتج من هذا أن طقس المناطق الحارة له أثره فى ازدياد الإجرام الانتقامى ؟ يظهر أن معظم علماء الإجرام يرون هذا الرأى .

ولقد ظهر من الإحصاءات أيضا أمر آخر فيه تأييد للحجة المتقدم ذكرها وهو أن الإجرام الانتقامى بما فى ذلك القتل يزداد مقداره فى الفصول الدافئة من السنة ونحن لو ألقينا نظرة الى هذا الإحصاء لوجدنا أن خط سير الرقم الخاص بالإجرام الجنائى فى مجموعه (وعلى منواله تماما الرقم الخاص بالقتل والشروع فيه) كلاهما يرتفع فى فصول الحر ويهبط فى فصول البرد وانه يواظب على هذا التقلب بطريقة منتظمة وفى مدى خمس سنوات متوالية دون أى شذوذ حتى أنه ليشبه فى تقلباته أسنان المشط ، على أن هذا التقلب لا يرجع الى العوامل الجوية وحدها فهناك عوامل أخرى كثيرة يتصادف أن تجتمع دائما فى خلال الفصول الدافئة والحارة من السنة فزراعات الذرة التى تقع على جانبى الطرق الزراعية تهيىء للقاتل فرصة نادرة ليكمن لغريمه ثم يفر هاربا بعد ذلك دون عناء ، والأجران حيث تجمع الحاصلات الصيفية لدراستها وحيث قد اعتاد الكثير من الفلاحين أن يناموا فيها بقصد حراستها وهم فى الواقع لا يلبثون أن يستغرقوا فى سبات عميق والى جانبهم سلاحهم الذى من شأنها أن تسهل للجانى ارتكاب جنايته، ونظام المناوبات الصيفية لتوزيع مياه الرى أيام الجفاف معروف عنه أنه مصدر لكثير من المنازعات وأسباب الشجار والقتل، ثم عادة الفلاح فى الخروج من منزله هربا من حرارة الجو لينام أمام داره على المصطبة . كل هذه الأسباب مجتمعة أو منفردة تساعد على تعليل الظاهرة المتقدم ذكرها .

وهناك أمر آخر تظهره الإحصاءات ذلك أن الإجرام الانتقامى أكثر انتشارا فى الريف منه فى المدن الكبرى، ففى المدن نجد الإجرام معظمه من النوع المادى بل أن جانبا من الإجرام الانتقامى الواقع فى المدينة يعتبر فى واقع الأمر ريفيا . ذلك لأن ارتكابه ينسب الى المهاجرين من الوجه القبلى والذين يختارون تصفية منازعاتهم فى المدينة فى خلال اقامتهم بها للقيام بأعمال المقاولات أو للبحث عن عمل . فهل هذه الظاهرة الأخيرة تدل على أن تأخر الحضارة له دخل فى الإجرام ؟

إن من المسائل المقررة أن الإجرام كلما اقترب من المدينة اتخذ اتجاها أبعد من العاطفة والانفعال وأقرب الى الطمع فى المادة . غير أن ذلك لا يدل على تغيير الى حال أحسن بل ولا على تناقص فى مقدار الإجرام، وكل ما يدل عليه هو أن الإجرام يصبح أكثر عنفا وغلظة

وقسوة ولكنه فى نفس الوقت يكون أقرب الى المكر واللؤم والخداع، بل والانحطاط الخلقى، بل لقد ذهب بعض كبار الباحثين إلى أن انعدام الحضارة بتاتا ليس سببا من أسباب الاجرام. فقد جاء فى كتاب العلامة (و.د.)موريسون عن الاجرام وأسبابه صفحة ٣٦ ما يلى:

"يقول المستر رسل ولاس فى هذا الصدد: لقد أقمت بين الزنوج المتوحشين فى جنوب أمريكا وفى الشرق حيث لا قوانين ولا محاكم فيما عدا محكمة الرأى العام فكان كل واحد من الأهالى يكن كل الإحترام لحقوق رفقائه وكان الاعتداء على أى حق من تلك الحقوق أمرا نادر الوقوع ان لم يكن معدوما تماما. ويشير المستر "هربرت سبنسر" الى كثير من الأمثلة على ما تتصف به الشعوب المتوحشة من صفات الرحمة والوداعة والاعتدال والأمانة واحترام حقوق الغير وكذلك العلامة "م دى. كاترفاج" فانه بعد أن لخص المميزات الخلقية للأنواع المختلفة من الأجناس البشرية انتهى الى القول بأنه من الناحية الأدبية لا يرى أن الجنس الأبيض يمتاز على الجنس الأسود بشىء يذكر وأن المدنية قد خلقت من الرذائل بقدر ما أوجدت من الفضائل وأن الشخص الذى يزعم أنها قد قللت من كمية الإجرام لشخص جرىء".

لهذا نسائل أنفسنا ما الذى حدا بالفلاح على أن يقدم على ارتكاب الجنايات الدموية ليتقم لنفسه؟ وهل يرجع هذا الى أنه من النوع الذى يطلق عليه العلماء عبارة "المجرم بطبعه أو بحكم الوراثة؟" كلا من غير شك. فالفلاح المصرى على العكس من ذلك يعتبر من خير فلاحى العالم طيبة وهدوءا، بل هو شخص لطيف المعشر حاضر الفكاهة وهو فوق ذلك شديد التمسك بدينه مدرك أنه يحرم الإجرام. ومن جهة أخرى فان النظرية الإيطالية القديمة التى كانت تقول بأن هناك أناسا خلقوا مجرمين لأنهم يرثون من الخواص الإجرامية ماتبدو آثاره على أجسامهم فى علامات ظاهرة قد اتضح أخيرا أنها إنما بنيت على وهم. أو كما يقول العلامة السير ايفلين واجلز برايز "خرافه" وطالما أوردت هذه النظرية الكثير من السخافات عن أمثال تلك العلامات فيما يسمونهم بالمجرمين الوراثيين كانخفاض فى الجبهة أو كثافة فى الحواجب أو بروز فى الآذان أو ما شاكل ذلك. وفى اعتقادى — وفى استطاعتكم أن تلاحظوا بأنفسكم أن آرائى الشخصية فى هذا الصدد قد لا تكون منزهة عن التحيز — اننا لو أتحنا لشخص أن يستعرض أمامه كل من تضمهم جدران أحد الليمانات مثلا بعد أن يصطفوا فى لباس متشابه هو رداء المسجونين ليختار منهم من تنطبق عليه الأوصاف المتقدم ذكرها لما كان من غير المحتمل أن تكون أول مجموعة يستخرجها من بينهم تشتمل على مدير الليمان نفسه.

كلا انى أعتقد أن تعلق الفلاح الشديد بأسباب الانتقام إنما يرجع للتقاليد العتيقة المبنية على روح الحماسة والفروسية القديمة وهى التى انتقلت اليه من جيل الى جيل من البدو من أيام الفتح العربى والتى صادفت هوى فى نفوس الفلاحين وبخاصة غريزتهم الكفاحية تلك الغريزة التى هى أكثر ظهورا فى الذكر . فبينما نجد أن أبرز غريزة فى المرأة هى غريزة الأمومة نرى أن الغريزة الغالبة فى الرجل ليست بغريزة الأبوة وإنما غريزة الكفاح والعراك . وبينما نرى أن الدمية تستهوى قلب الطفلة الصغيرة نرى أن الصبى الصغير يتملك قلبه حصان أو سيف أو غير ذلك من أساحة القتال وانى ما زلت أذكر الى اليوم بائع الحلوى الذى كان يجول فى أزقة قريتنا يصيح مناديا على سلعته "حصان للولد وعروس للبنت" وفى ظنى أن هذا الرجل قد خلق عالما من علماء النفس .

ولقد مرت قرون عدة ساعد فيها الجهل وما يصاحبه من خواص أخرى على تمهيد عقول الفلاحين البسطاء لتنمو فيها تقاليد الثأر وتمتد جذورها حتى أصبح تعلق الفلاح بواجب الأخذ بثأره يكاد لا يقل عن تمسكه بعقيدته الدينية . فالفلاح كان ومازال الى اليوم يعتقد أن من الرجولة أن يقتص لنفسه بنفسه وأن من الضعف والجبن أن يشكو أمره إلى غيره ولو كان ذلك الغير الهيئة الحاكمة نفسها وأن من البطولة بل من الوطنية الحقة أن ينتقم لشرفه المثلوم . وهذا هو السر فى أنه لا يحس فى نفسه خجلا أو عارا إذا ما اتهم أو عوقب من أجل تلك التهمة التى كثيرا ما يعترف بها مباهيا فخورا . وهذا هو السر أيضا فى أن أهل بلدته يستقبلونه وهو عائد من السجن بالدف والطبول ، وهذا هو السر فى أن الكثير من جنايات القتل لا يصل أمرها الى الحكومة لأن أهل القتيل قد اعتزموا الثأر لأنفسهم ، وهذا هو السر فى أن كثيرا من الجنايات التى أبلغت وتم تحقيقها ينتهى أمرها بالفشل لأن الشهود فيها يحجمون عن الشهادة ليس دائما عن عدم اكتراث أو عن جبن أو خوف بل عن عطف على القاتل الذى قدم للملأ الدليل على رجولته وشهامته بأن غسل عاره وثأره فى دم غريمه . ولقد اشتهر عن العرب الذين طالما عرفوا بالبسالة والشجاعة واتقان ضروب الفروسية أنهم يفخرون بتاريخهم معترون به حتى لقد أنشأوا عن أبطالهم وفرسانهم أسطورة هائلة صاغوها فى سيل كبير من النظم والنثر وأخذوا يتبارون فى التغنى بها وانشادها فى مجتمعاتهم وأسواقهم ، فلما قدموا إلى مصر نقل عنهم المصريون دينهم ولغتهم ولباسهم ثم ما لبثت تقاليد الثأر عندهم (ومعناه النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن) أن انتشرت كالنار فى الهشيم بين الفلاحين الذين أقبلوا متلهفين على اعتناقه واتباعه بكل ما اشتمل عليه من تعاليم كان من أهمها التضامن القائلى والصبر الطويل والكتمان والتآمر ، وإنى لأقتبس للتمثيل على ذلك جانبا من ترجمة قصيدة نشرها الأستاذ "ا . و . لين" فى كتاب مصر الحديثة من حوالى اكثر من قرن ، قال يروى على لسان خضرة مخاطبة ولدها أبى زيد الهلالى عندما سألها عن سر ولادته ، صفحة ٤٠٣

" فليساعدك الله ياولدى لتأخذ بثأرك ، وتحـ ب نجع بنى هـلال ولكن عليك أن تكتم تمـاما ماقصصته عليك فلا تذكره لمخلوق ، لئلا يغضب عمك ، فاعتصم بالصبر وانتظر حتى تنال ماتشتهى من رغبة فى الانتقـام " . قلت إن الفلاحين قد سارعوا إلى تلبية نداء الثأر المقدس، بل لقد عرف عنهم أنهم كثيرا مابزوا فيه أسلافهم العرب فكثيرا ماحدث فى القضايا أن فلاحا أخذ بالثأر لنفسه بعد أن بقى صابرا سنين طويلة ظل فى خلالها يمشى حاسر الرأس حافى القدمين رث الثياب لايغتسل ولا يقبل فى فقيده عزاء، وفى الواقع أن شبح الثأر يظل يلاحق الفلاح من مهده إلى لحده فهو إذ ينشأ طفلا صغيرا يلقن من فم أمه قصة الثأر فى عبارات ملتهبة تمـاما كما كان يفعل أسلافه الأقدمون فإذ ماترعرع وأصبح غلاما أقبل فى لهفة على الاستماع الى الكتب العديدة المؤلفة عن أولئك الأبطال وسيرهم مثل أبو زيد الهلال والزير سالم وعنتره العبسى وسيف ابن ذى يزن أو على التفرج على نوع من أنواع التسلية الحديثـة العهد نوعا ما وتسمى "صندوق العجب" أو "صندوق الدنيا" حيث يجلس الغلام يستعرض من خلال منظار مكبر صورا خيالية لأولئك الأبطال يمرون أمامه مجسمين فى شكل خلاب بينما يقوم المخرج بالتفسير فى صوت موسيقى يثير الحماس والاعجاب، فاذا ماشب وتزوج عمد إلى اظهار إعجابه بأولئك الأبطال فنقل صورهم مكبرة على واجهة منزله أو نقشها بالوشم على جسمه أو رسمها بالألوان الزاهية على صندوق جهاز العروس حيث ترى أبا زيد وهو ذولون أسود مجسما فى شكل فارس مغوار يمتطى جوادا أصيلا و يمسك حساما يكاد حجمه يبلغ ضعف حجم الجواد وله شارب هائل قد يكون أقرب فى شكله الى حصر متحرك، فاذا ما اكتملت رجولته أقبل فى حماس على التردد على القهوة حيث يستمع الى الشاعر الذى ينشد على الرباب سيرة أولئك الشجعان وكيف كانوا يصبرون الأيام والليالى الطوال فى انتظار الفرصة للأخذ بثأرهم لاتهجع لهم عين ولا يغمض لهم جفن يأتون من ضروب التضحية و يبتكرون من مختلف أنواع الحيلة والخداع للإيقاع بغريمهم ماتشيب من هوله الولدان وكيف أن من كان يقتل له قتيل كان يبقى هو وكل عشيرته محلا للتعيير والتشهير الى أن يروى ظمأه بالأخذ بثأره.

على أن الفلاح على الرغم من كل ما ذكرناه لا يعتبر مجرما خطرا على المجتمع وكما قال السير روبرت أندرسون "ان الرجل الذى يقتل عدوه الشخصى لا يثير فى قلب الغير خوفا ولا هلعا" كذلك الفلاح لا يلبث أن يزول عنه كابوس الثأر حتى يعود سعيدا بعيشة الهدوء والقناعة مرتاح الضمير إلى أنه إنما قام بواجب مقدس. ولقد ترى الفلاح الذى اعترف فى التحقيق بجريمة القتل العمد أخذا بثأره لا يطيق أن توجه إليه ولو شبهة أو تلميح بأنه لص أو محتال. فهو فى نظر نفسه ليس سوى رجل منتقم عادل . وقد يبدو غريبا اختلاف وجهتى النظر بين القاتل واللص ، فبينما ترى القاتل يحتقر اللص ، نرى اللص يبدى اشمئزازه من قاتل سفاك يريق الدماء .

ولقد لوحظ إنى وضعت مسائل الانتقام للعرض أو شرف الأسرة ومسائل الأخذ بالثأر جنبا إلى جنب، والواقع أن الفلاح — و بوجه خاص فلاح الوجه القبلى — شديد التأثر بهذا الدافع إلى حد بعيد، فهو بمقتضى قواعد الفروسية وارجولة الحقة يعتبر أنه الشخص الوحيد المسئول عن حماية زوجته و جميع أفراد أسرته و بخاصة النساء منهم ولا يسمح بأن توجه حتى ولا ظل الإهانة إلى شرفه من هذه الناحية ولو ذاق فى سبيل ذلك الموت، والمعروف أن أقل شبهة تلقى على سير المرأة لا جزاء لها غير القتل . وكل فتاة فى الأسرة تعرف تماما أن زلتها فيها فنائها المحقق . ومما يروى فى هذا الصدد أن خفيرا من أهالى الصعيد بلغه أن أخته احترفت البغاء فى بلدة بعيدة فاستقل أول قطار وذهب فى البحث عنها إلى أن عثر عليها وأخذ فى طعنها حتى أزهق روحها ثم وقف على جثتها شاهرا خنجره ينادى بنفسه: بطلا مقداما صادق الوطنية .

وهناك إلى جانب الثأر والعرض أسباب أخرى للقتل انتقاما ، وهى مع أنها أقل أهمية إلا أنها لا تقل عنها ذيوعا وانتشارا، من ذلك التنافس على وظيفة العمدة أو شيخ الخفراء أو الخلاف على شؤون الرى أو البذر أو الزرع والحصاد أو التعرض فى وضع اليد أو ما إلى ذلك من خصومات عديدة تجتمع تحت عنوان " الضغائن " .

غير أن الفلاح قد عرف عنه فى كثير من الأحوال أنه يلجأ للقتل انتقاما لأسباب هى من التفاهة بحيث قد لا يخطر على البال أن تكون كافية حتى لإثارة نقاش بسيط، وهناك أمثلة لا تحصى لجرائم قتل ارتكبها الفلاح لمجرد كون عنزة جاره دخلت فى زرعه أو لأن شخصا لم يرد عليه تحيته بمثلها أو لأنه أصر على أن يحصل على سداد دينه الضئيل فى موعده أو لأنه اختلف على ثمن خسة أو فجلة أو عود من القصب أو لأنه نازعه ظل شجرة، ولم يكن القتل فى مثل هذه الأحوال مرتكبا دائما تحت عامل ثورة الغضب والاندفاع، بل أن كثيرا منها قد ارتكب بعد تأمل وتفكير هادئ فما السبب ؟ أعتقد أن التعليل الصحيح هو أن الفلاح بحكم ما هو فيه من عزلة فكرية عرضة لأن يفقد قدرته على وزن الأمور والحكم عليها حكما صحيحا فكما أن السجين الذى يقضى حياته بين جدران السجن لا يستطيع أن يطل منه على الكون المحيط به ليتعرف ما حوله معرض لأن يفقد حاسة قياس المسافات والأحجام، كذلك الفلاح يقعى طول يومه لا يشغل باله سوى خصومة تبدو فى بادئ الأمر تافهة ولكنها لا تلبث أن تنمو وتتجسم أمام مخيلته حتى تصبح هائلة الحجم فهو يتدرج بفكره إلى تصور الاعتداء بأنه مضايقة فاستخفاف فمعاكسة فتحقير فإهانة، وهنا يرى أن كرمته مهددة وأن شرفه يقتضى أن يبادر إلى الاقتصاص له كما يجب على الرجل أن يفعل .

وقبل أن أترك هذه النقطة يسرنى أن أشير إلى أن الفلاح سائر حثيثا فى طريقه إلى الأمام وأن وزارة الشؤون الاجتماعية التى قد أنشأت مصلحة خاصة بشؤون الفلاح تبذل

جهدا متواصلا بالتعاون فيما بينها و بين باقى الوزارات وبخاصة وزارة الداخلية والصحة والمعارف لتحسين حال النلاح والنهوض بمستواه من كافة الوجوه وأنها قد بدأت تقطف ثمار تلك الجهود التى تركت أثرها بالفعل فى حالة الأمن العام .

وأخيرا أرى لزاما على أن أضيف كلمة عن جرائم القتل التى ترتكب لدافع مادى غير انتقامى فهى على الرغم من كونها أقل عددا إلا أن لها أهميتها وخطرها على الأمن فكثيرا ما يرتكب القتل لتسهيل جريمة سرقة أو سطو أو خطف أو للتخلص من مورث أو زوج غير مرغوب فيه ؛ على أن أكثرها ذيوعا على الاطلاق جناية القتل التى يرتكبها القاتل المأجور فهى على الرغم من أن الدافع الأساسى فيها هو الانتقام إلا أن القاتل الأجير ينظر إليها نظرته إلى صفقة تجارية .

ثالثا — الوسائل : وما دمنا فى صدد وسائل القتل يجب أن ننوه إلى هذه الوسيلة الهامة وهى تأجير الأشقياء محترفى القتل — (ويطلق عليها فى عرف القرويين " الكراء ") قد زاد انتشارها — حتى فى قضايا الأخذ بالثأر أو الانتقام للعرض ، بل لقد بلغت من الذيوع حدا جعل الناس يفترضونها كقضية مسلمة فكلما ارتكبت جناية قتل لم يعرف فيها شخص الجانى فقد ترى المجنى عليه أو أهله لا يتهمون خصمهم بأنه ارتكب القتل بنفسه ولكن بأنه قد استخدم آخر لارتكابه .

وقد يبدو مستغربا لأول وهلة أن يكل الفلاح أمر الانتقام لثأره أو لشرفه وعرضه إلى شخص أجنبى عنه على خلاف ما قضت به التقاليد . ولكن الواقع أنه يعمد إلى ذلك لا عن خوف أو رهبة و إنما عن الرغبة الملحة فى أن يصل إلى غرضه من الانتقام كاملا غير منقوص — ذلك أن القاتل المحترف ليس أحذق منه فى الرماية و إصابة الهدف ، فحسب بل أن لديه سلاحا أكثر فتكا وكفاية ثم أنه يعد للجريمة خطة محكمة تمام الإحكام كما يعد دفاعا له ولصاحبه . وهو فوق ذلك يستطيع أن يرشى رجال الحفظ الذين يعرفهم كما يستطيع التخلص من شهود الرؤية الذين إن هم لم يعرفوه من قبل لا يستطيعون الاستعراف عليه غالبا أما إذا عرفوه فإنهم يحجمون عن الشهادة خوفا على أنفسهم من بطشه وانتقامه . وهو فى معظم الأحوال يتخذ نوعا من الاحتياط لا يأتيه عادة الجانى غير المحترف . ذلك أنه قبل أن يفر هاربا بعد ارتكاب الجريمة يمحى على مكان الحادث نظرة أخيرة ليستوثق من أنه لم يترك وراءه أثرا يدل عليه . ثم هو إلى ذلك يحذق بعض الحيل التى يستطيع أن يضلل بها رجال البوليس — غير أنه يحسن بى قبل أن آتى على ذكرها أن أقدم لكم صورة سريعة من ذلك الشق المأجور . فهو فى أغلب الأحوال من البدو الذين اشتهروا بإجادة الرماية و إتقان الفروسية وهو غالبا من المشبوهين الذين يعتبرون أشد خطرا حتى من الخارجين من الليمانات ، ذلك أن المشبوه بحكم كونه غير خاضع لرقابة البوليس يستطيع التجول ليلا ونهارا أينما شاء وهو ملم تمام الإلمام بحقوقه وحرياته الدستورية التى تحمى شخصه ومسكنه حريص على ألا ينتهك

منها شيء . وليس جسمه حتما ذا ضخامة أو قوة خارقة ، بل قد يكون على العكس ضئيل الجسم نحيف البدن غير أنه على أى حال شديد النشاط خفيف الحركة ماهر فى إصابة الهدف وفى ركوب الخيل حاد البصر ثم أن له فى أغلب الأحوال شاربا كبيرا إذا ما زال الشارب يعتبر عندهم أثرا من آثار البطولة القديمة ولقد عرفت منذ حوالى عشرين سنة أو أكثر شقيا يدعى مطراوى (ولم تكن معرفتى به وثيقة بطبيعة الحال) وكان ذكر اسمه كافيا لالقاء الرعب والفزع فى قلوب سكان مديرية البحيرة ومع ذلك فقد كان يبدو لى من الضآلة كما لو كان رجلا مريضا . ويوجد بين أولئك الأشقياء أناس أغنياء لهم حاشية من أتباع وأنصار وقد عرف عن معظمهم أنهم يفرضون الإتاوات على الملاك والأعيان وحتى على شركات السيارات ، بل يقال إنهم يتقاضونها طبقا لتسعيرة معينة بحيث يرتفع أجر ارتكاب الجناية كلما زاد اتقانها فالشق يتناول مثلا عشرة جنيهات فى نظير قتل " كامل " لايستطيع المجنى عليه فيه أن ينطق بكلمة قبل موته وخمسة جنيهات إذا كانت الرماية أقل إحكاما والغريب أن لدى هؤلاء الأشقياء فكرتهم الخاصة عن الشهامة والمروءة — فلقد روى عن أحدهم أنه لما طالب عميله بالأجر سلفا — شكا له سوء حاله فرق له وقال إنه سيقتل غريمه دون أجر لوجه الله !

أما طريقتهم فى القتل فتتلخص فى أن القاتل الأجير يزور بلدة المجنى عليه وهناك يدرس أحواله وعاداته ثم يفحص مكان الحادث ويرسم الخطة له ، بل قد يقوم بعمل تجربة للجريمة أو قد يسجل بطريقة رسمية دفاعه وذلك بأن يبلغ مثلا نقطة بوليس بعيدة عن محصول حادث مختلق ليثبت وجوده فى مكان بعيد . ومن أهم الحيل التى يلجأون إليها حيلة شهيرة قد يكون فيها الدليل الوحيد لظاهرة غريبة فى الإحصاء لم يكن يمكن تفسيرها بدونها تلك الظاهرة هى أن جنايات القتل تكثر حيث يقل عدد الأشقياء وتقل حيث يزداد عددهم . أما الحيلة فهى أنهم يقومون بقتل غريمهم بعيدا عن بلدته فيستدرجونه إلى مكان بعيد منتحلين أحد الأعذار المغرية . وهناك يصبح كل من القاتل والقتيل غرباء غير معروفين ويكاد يكون من المحقق أن يكتفى بتحقيق مقتضب قصير وأن تنتهى القضية بالفشل . وهناك حيلة أخرى تتلخص فى قتل غريمهم على الحدود الفاصلة بين بلدتين أو مركزين أو مديريتين . فلقد أدرك الأشقياء الطريقة التى يتبعها البوليس الريفى أحيانا لضبط الجنايات وعلمتهم التجارب أنه كلما كان الاختصاص محل نزاع بين جهتين رجح جدا أن يحدث خلاف كبير على الاختصاص يقوم فيه الطرفان بتطبيق الخرائط ومقارنة الرسوم لتقديم الدليل على عدم الاختصاص . ولقد حدث مرة أن أحد مشايخ البلد شاهده أهل القتيل يحمل الجثة على كتفه ويلقيها إلى الناحية الأخرى من مجرى مياه على الحدود بين مركزين نشأ عن ذلك عراك كبير ثم شرع فى التحقيق الذى دار حول تحديد الاختصاص وعلى حادث الشجار مع شيخ البلد بينما لم تستطع الجثة المسكينة إلا الانتظار ولقد اعتاد القتلة المحترفون

أن يدخلوا هذا النقص الذى يسرنى أن أقوله إنه أخذ يتضاءل. وهناك فى جهة ما ببلاد الوجه البحرى نقطة تلتقى عندها ثلاث مديريات وخمس مراكز كانت فى وقت ما تعتبر جنة للسفاكين.

ولحسن الحظ أن عدد أولئك القتلة قد أخذ يتناقص فى السنوات الأخيرة بسبب الإجراءات العسكرية المتخذة لترحيلهم إلى معتقل خاص طول مدة الحرب وقد كان هذا الإجراء سببا فى هبوط أرقام الجنايات وبخاصة القتل .

أما الوسيلة الثانية للقتل فهى السلاح المستعمل ولا شك أن أخطر أسلحة القتل وأكثرها انتشارا هو السلاح النارى، صحيح أن هناك أنواعا أخرى عديدة تسمى الأسلحة البيضاء كالسكين والبلطة والخنجر وهناك السلاح الأصفر وهو الزرنيخ الذى يستعمله النساء عادة فى قتل أزواجهن . إلا أن السلاح النارى بأنواعه هو أهم أسلحة القتل بلا نزاع إذ يندر أن تقل نسبة استعماله عن ٧٠ ./. من مجموع جنايات القتل ومن أهم أنواعه البندقية الخرطوش عيار ١٢ و ١٦ وكذلك الفرد والجوز ، أما المقروطة أى البندقية المقصوص جزء من ماسورتها فلها مزية خاصة هى أنها من الطول بحيث تساعد على إتقان إصابة الهدف ومن القصر بحيث يسهل إخفاؤها تحت الرداء الخارجى (أو الجلابية) ولا أظن أن هناك فلاحا واحدا — سواء أكان مجرما أم غير مجرم — لا يحتفظ ببندقية أو فرد واحد على الأقل للدفاع عن نفسه فيخفيها باعتناء ويحرص عليها كل الحرص كما أعتقد أن ما يضبطه البوليس سنويا من السلاح النارى ويبلغ فى المتوسط تسعة آلاف قطعة لا يكون إلا نسبة ضئيلة مما هو فى أيدى الفلاحين بالفعل وإن من المدهش حقا سرعة قدرة الفلاحين على إخفاء أسلحتهم النارية ثم إظهارها فى طرفة عين بينما قد يقضى البوليس الساعات الطوال فى البحث عنها على غير طائل — قد حدث فى إحدى القضايا أن بلدتين جرت بينهما معركة كبيرة أطلقت فيها مئات من الأعيرة ولم يفلح البوليس فى العثور على سلاح واحد ولكنه عقب انصرافه عادت المعركة إلى شدتها بالأسلحة ذاتها — وفى حادث آخر أطلقت أعيرة كثيرة جدا وأصيب وقتل كثيرون فلم يعثر البوليس إلا على سيف وبندقية ثبت أنها غير مستعملة من زمن طويل .

والفلاح يفضل السلاح النارى لحكمة ظاهرة هى أنه يستطيع استعماله وهو فى مكمنه دون أن يتماسك مع المجنى عليه أو يعرض نفسه لرؤيته أما عيبه الأساسى وهو صوت الطلق فقد أضاع قيمته عادة منتشرة بين الفلاحين هى إطلاق أعيرة الملقة أى التى تطلق فى الليل بقصد إرهاب الوحوش او اللصوص فقد ترتب على كثرة استعمالها أن صوت الأعيرة ليلا أصبح لا يكاد يلفت النظر ، ولقد حدث أن سألت خفيرا كان دركه على مسافة قريبة من مكان جثة القتيل لماذا لم يذهب على صوت العيار فأجاب بأنه اعتقد أنه عيار ملقه لأنه لم يعقبه صوت استغاثة أو أنين .

محمد البابلى
مدير كلية البوليس الملكية

أثر القصة فى تربية الشعب

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

القصة مظهر من مظاهر التعبير عما تختلج به النفس ، ويضطرب به الخاطر ، إذ أن النفس البشرية قد جبلت منذ القدم على أن تعبر عما ينعكس على صفحاتها من مظاهر الكون كما طبعت على الإفصاح عما يدور فى واعيتها من أثر المشاهدة والسماع . فكان الرقص والنقش فى الحجر ، والتصوير ، والغناء ، وتقليد أصوات الحيوان من طير وغيره ، ومحاكاة حركاته ضروبا من هذا التعبير والإفصاح تجرى فى حالة بدائية بلا قصد ، وذلك قبل أن يضع لها الذهن البشرى أصولا وقواعد ، تجعلها فنونا مستقلة ، هى النحت والتصوير والموسيقى والتمثيل وغيرها . وليست القصة فى الواقع إلا وسيلة من وسائل الترجمة والإبانة التى درجت مع الإنسانية فى نشوئها القديم .

ولعل فن التاريخ قديم من صميم القصة ، إذ كان فى مبدئه أساطير يسوده التحيز والإغراق والغلو ، والأسطورة بداءة القصة ، تسجل شيئا من الواقع لحياة الأبطال ، وتعتمد على الكثير من تزويق الخيال . وعلى مر الأيام استقل التاريخ بنفسه ، وانفصل عن الأسطورة ، فأصبح تاريخا له وقائعه ، وله حقائقه . وأيضا تطورت الخرافة ، فتحولت قصة ، واستمر فى القصة التطور ، فاتخذت مذاهب وألوانا شتى .

والآن نتساءل : هل كان للقصة حقا أثر فى التربية والتهذيب ، وفى نصرة الفضيلة وإقرار المبادئ القويمة ؟ الحق أن الإنسانية منذ اصطحبت أصول الاجتماع ، أعنى منذ تبرم الإنسان بحياة الوحدة والتشتت والأثرة ، وآثر الشركة والاستقرار والتعاون فى ظل أنظمة الأسرة والقبيلة والمدينة والوطن . هذه الإنسانية اضطرت أن تقرر قواعد للفضيلة والرذيلة تتطلبها الحياة الاجتماعية . فكان من واجب الإنسان الحضرى أن يدعو اليها ويذود عنها ومن ثم اضطلع الحكماء المرشدون من الوعاظ والخطباء بهذه المهمة ، وجاءت الكتب السماوية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكانت المواعظ التى تبث ، والخطب التى تلقى ، تتخذ شكل الترغيب والتحذير ، والوعد والوعيد ، فى أسلوب صريح ، ومنحى واضح ، فهى تمثل الطريقة المباشرة فى الوعظ والإرشاد .

وليس لنا أن ننكر ما لهذه الطريقة من فضل هداية النفوس ، ونصرة مكارم الأخلاق إلا أن جماعة من أهل الرأى فطنوا إلى وسيلة أخرى لبلوغ هذا الهدف من طريق غير مباشر

دون استخدام الحض الصريح أو التنفير المكشوف. فكانت القصة الفنية مظهر هذه الوسيلة تصاغ حوادثها على نحو يكفل التسلية ويجرى كل شيء فيها مستورا تحسه ولا تراه . وهي بعرضها مشهدا من مشاهد الحياة كما يكون فى الواقع ، إنما تتيح لنا أن نتأمل فى صحائف من حياتنا نسخر من غباوة الغبي ، ونضحك من جهالة الجاهل ، ونتحرز من مزالق الرذيلة . وهـذه الوسيلة فى العرض والتعبير تفعل فى النفس أكثر من الوعد المباشر، أو الوعيد المباشر ، لأنها تتسرب إلى الحس من غير استئذان أو تنبيه . والإنسان فى قرارة غريزته لا يميل كل الميل الى ما يذكره بضعفه ، وما يدله دلالة صريحة على انحرافه عن جادة الحق : فان قالوا له لا تفعل ، فى أمر ومجاهرة ازداد هو، من غير وعى، صلابة و إصرارا ؛ ليحافظ على استقلال شخصيته ولأن كل ممنوع إلى النفس حبيب .

والقصاص يتخذ من الوسائل فى عرضه ومعالجته ما يدع الآذان مصغية الى ما يقول ، إذ أنه يضفى على القصة خيالا ممزوجا بحوادث من الواقع ممتعة تتخللها مشوقات خلابة ؛ فلا يلبث ذلك أن يبعث فى نفس المطالع نشوة تجعله يتابع القصة بعينه ، و يسايرها برأيه وتأثره .

ولقد جعلت القصة تتطور مع الزمن وحاجاته وملابساته ؛ فتتسامى من درجة الى درجة حتى أصبحت تتسنم ذروة عالية من تقدير الأدباء ورواد الفكر ، يطرقونها بقرائحهم وأقلامهم للوصول إلى أعماق القلب الإنسانى ؛ وسبر أغوار النفس البشرية واكتناه أسرارها .

تلك هى القصة فى معناها الواسع وأغراضها السامية ، وذلك أثرها فى التشذيب والتهذيب. و إنى لأرى لزاما علىّ أن أتوسع فى التحدث عن القصص الفنى واللا فنى ؛ ليتجلى أثر كل منهما فى نفس قارئه . وما دامت القصة فنا فمرماها الجمال ، والجمال فى محيطه الفسيح آية من آيات الخير . فالفن عند الكاتب الفنان طبيعة صادقة ، ونزعة إلى تجميل الواقع ونابة ، والقصة الفنية تشترط — أول ما تشترط — الصدق ، وهى لا تستكمل فنيتها إلا أن كانت صادقة فى موضوعها ، صادقة فى الكشف عن نفوس أشخاصها ، صادقة فى أهدافها ومراميها ؛ سـواء أكانت للقراءة أم للمسرح أم للسينما . فالصدق أساس لكل عمل فنى . وكذلك الطبيعة بواقعها دعامة لفنية القصة . ولست أعنى بالصدق والواقع نقل الحياة نقلا فوتوغرافيا ، و إنمـا أعنى به التعبير الصادق عن إحساس الفنان فى سمو ، وذلك مع التغلغل فى الشخصية المراد رسمها ، واستبطان دخيلتها ، وعرضها بطرق مختلفة فى التعبير ، بين تركيز أو تحليل ، و إجمال أو تفسير ، ورمز أو إفصاح . ولا ننسى أداة الكاتب فى معالجة القصة الفنية ، وهى الذهن والعاطفة والخيال ، فهذه ملكات تعين على تسجيل مظاهر الطبيعة والسمو بها وتجميلها فى التصوير والتعبير . وقبل هذا كله لا غناء للقاص الفنى عن تعرف العالم الإنسانى بما يعتلج فيه من متباين الغرائز والمشاعر والنزعات .

فأما القصص اللافنى فهو الذى يتجافى عن الصدق والواقع . والقاص غير الفنى هو الذى يسلك فى طريقه أدون الوسائل ، غير عابىء بشىء فى سبيل الوصول إلى مبتغاه . فلا يماشى حركة الحياة الطبيعية للأشخاص ، بل يرغمهم على الأطوار التى يريدها ، ويسلمهم إلى النتائج التى يضعها ، ويفتعل من أجل ذلك مؤثرات مصنوعة ، وتأثرات كاذبة ، مستعينا بمهارة رخيصة ، وطلاء سريع الشحوب ، فيتهافت من الوجهة الفنية أسوأ التهافت ، ولا يصبح من فن القصة فى قليل ولا كثير .

وهذا القصص اللافنى مع الأسف مرتعه الخصيب بين الجمهور غير المثقف ، وله تأثير وإن كان سريع الزوال فى الطبقات الدنيا من هذا الجمهور على وجه خاص . فغير المثقف يرى فى هذا القصص صورا ملموسة لا تلبث أن تروعه ، ويصادف شخصيات غير معقدة يتفهمها على عجل ، وتمر به مغالطات نفسية فى سياق الحوادث تجوز عليه ، فيتأثر بها أيما تأثر .

بيد أن الواقع الذى لا ريب فيه أن التأثر الذى لا يقوم على الحقائق معرض للزوال إذا انكشفت الخدعة ، واستيقظت الفطنة ، وحينئذ لا يبقى الأثر الذى طمح إليه القصصى اللافنى فى توجيه الجمهور وتربيته على هذا النحو .

وما دام بقاء القصص اللافنى فى ثوبه المهلهل رهينا بثقافة الجمهور ، فإن رقى التعليم على اختلاف درجاته ، وشيوعه بين الشعب على تباين طبقاته كفيل بمناوأة هذا الضرب من القصص والقضاء على سلطانه يوما بعد يوم . فكلما ازدادت الثقافة وانبسطت أجنحتها تقاربت الخطا إلى القصص الفنى ، وأخذت القصة طابعا يألفه العامة ولا يترفع عنه الخاصة . وعلى كتابنا المعاصرين أن يأخذوا على عواتقهم تقريب المسافة ، واقتصاد الزمن ، وذلك بترويد الجمهور بما لا ينبو عن ذوقه ، ولا يعلو على فهمه ، مع الاحتفاظ جهد الطاقة بالسمو الفنى . فإن نجحت هذه التجربة زهد الجمهور فى القصص الرخيص ، ودنا شيئا فشيئا من المكانة التى ينبغى أن يستسيغ فيها طعامه الطيب ، ويرحب بما يؤثر فى تربيته أثرا شريفا باقيا يتوارثه الأجيال .

ولقد ساء جماعة من النقاد أن يقصر بعض أدباء القصة فى مطاوعة الحياة الراهنة ، وأن يهملوا القيام بقسط من التوجيه والإرشاد ، وألا يتخذوا من أدوائنا الاجتماعية مادة يؤثرون بها فى الجمهور ، ويحببونه فيما يعود عليه بالنفع . فهل قصر أدباء القصة حقا فى هذا الواجب؟ وماذا كان عليهم أن يفعلوا ؟

كثيرا ما يقع الخلاف على نقطة تعرض للباحث فى هذا الموضوع ، تلك هى أن بعض الناس يظنون أن القصصى والأديب على وجه عام ، يملك أن يؤثر فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بأن يؤجج ثورة مثلا ، وأن ينشىء مذهبا أية كانت غايته . وبعبارة أخرى : يكون له

تأثير إيجابى فى البيئة التى يحيا فيها . وعندى أن لرأى الراجح فى هـذه الناحية هو أن القاص الموهوب بحسه المرهف ويقظته الحادة فى الشعور بأدق الحاجات التى تسرى فى المجتمع — قادر على أن يقتنص الخفى العميق الكامن فى واعية الجمهور ، فلا يلبث أن يعبر عنه ، أى يحيله مادة مكتوبة . وقد يكون فيما يزول من ذلك مدفوعا بعامل لاشعورى تخفى عليه ملامحه ، فهو يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فيترجم عن هذا التأثير — قبل أن يحسه سواه — فى عمل قصصى ، مثله فى ذلك مثل سائر الفنانين من موسيقيين ومثالين وغيرهم .

فالذين يلومون القصاص المصريين على سكوتهم قد يكون فى لومهم بعض الحق . إذ يحتمل أن يكون أولئك القصاص لم يواتهم من الملكات الموهوبة ما يتمكنون به من أن يحسوا ، وأن يحسنوا التعبير عن النزعات والمطامح التى تضطرم بين حنايا المجتمع . وإما أنهم يحسون ويدركون ما يصح أن يكتبوا فيه ، ويجعلوه مادة لقصصهم ، ولكن ملابسات الحياة الراهنة تحجزهم عن ذلك . وإما أن يكون الأمر كما يريد بعض أن يقول ، وذلك أن البيئة المصرية فى هذه الفترة مستبد بها سبات . وما يختلج فيها الفينة بعد الفينة إنما يختلج لمحا وخطفا ، فهو لا يثير الفنان ، ولا يبعثه على التأثر والتعبير .

ومثل هذا يجب أن يقال فى النقد الموجه إلى الموسيقيين ، لخلو ألحانهم مما يثير الشجاعة والحماسة ، وامتلائها بألوان متشابهة من النواح والبكاء ، أو الهزل والمجون . وعذرهم الحق أن ذلك تصوير لنفسية الأمة التى يساكنونها ، وما هى إلا بين ناجن يهزل أو شاك يئن ، ولا يطلب من الموسيقى أن يتكلف أو يفتعل ، فيؤلف لحنا يمثل النفوس القوية ، مع أنه لم يستوحه من قلب الشعب . فإن فعل ذلك كان كالقصاص الذى يتكلف قطعة ثائرة ، دون أن يستلهم قومه هذه الحماسة . فالتكلف والافتعال مقضى عليهما بالخذلان والإخفاق . ولن يكتب الخلود إلا لعمل يخرج من قلب فنان صادق التعبير خالص الإلهام .

ولا ننسى مع هذا أن بعض قصاصنا الفنيين لم يفتهم تسجيل ظواهر التذمر أو النشاط الحيوى ، ولم يهملوا عرض أشتات الأمراض الاجتماعية التى يعانيها الشعب ، ولكننا نرجو أن تقوى فى الأمة روح الطموح إلى ما هو أعلى ، وأن تحتدم بين جوانحها الآمال والرغبات . فيعظم اهتمام الفنانين بالتعبير عن مشاعر الأمة فى صياغتهم الفنية ، ويكون للقصصيين من ذلك نصيب وافر ، ويومئذ يتحقق لنا للقصة فى تربية الشعب من أثر واضح كبير .

محمود تيمور

أبطالنا المنسيون
وأمجادنا المغمورة

بقلم الأستاذ سيد قطب

لكل أمة أبطالها التاريخيون فى كل نواحى البطولة ، تضربهم أمثالا لأبنائها الناشئين ، وتعرض حياتهم فى شتى الصور، فتارة تعرضها عرضا تاريخيا ، وتارة تعرضها عرضا تحليليا ، وتارة تحوك حول سيرتهم القصص، ومرة تصوغ حولهم الأساطير . وذلك حسب الطبقات التى تقدم لها الأمثال من حياة هؤلاء الأبطال .

فحين تخاطب الجماهير الساذجة والأطفال الصغار تختار طريق الأساطير والقصص لأنها الطريقة المحببة إلى الأطفال و إلى الجماهير ، والوسيلة المؤثرة فى نفوسهم ، الحبيبة إلى قلوبهم.

وحين تخاطب طلاب العلم ورجال البحث ، تختار طريق العرض التاريخى أو السير التحليلية ، لأنها الطريقة اللائقة بالعقول المفكرة والحقائق المدروسة .

وهى فى جميع الحالات تحيط هؤلاء الأبطال بهالة من الإعجاب والتقدير ، تجعل منهم قدوة محبوبة للأجيال ، ومُثُلا يتطلع كل فرد إلى تحقيقها فى الحياة .

هذا الإعجاب وهذا التقدير ، يثيران فى الأمم فضائلها الكامنة ، ويثيران فى الأفراد قواهم المذخورة ، فتبدو تلك الفضائل ، وتتنبه هذه القوى ، وتصبح عوامل بناء فى جسم الأمة ، وحوافز نهوض فى نفس الشعب على مدى الأجيال .

ولهذا تتخذ الأمم الحية كل وسيلة لإبراز هؤلاء الأبطال ، حتى لقد تتخذ اللعب وبعض أنواع الحلوى وسيلة للتعريف بأبطالها فى نفوس الأطفال الناشئين ، وكثيرا ما رأينا بعض أنواع " الشكولاته " والحلوى قد لفت بغلاف أو دست فيها بطاقة تحوى صورة أو جملة أو حكاية قصيرة عن بطل من الأبطال ، وكذلك اللعب وأدوات الكتابة وسواها .

وربما كانت هذه الوسيلة من أحب الوسائل إلى الأطفال ، ومن أنجعها فى تعريف الأبطال إليهم ، لأن هذا التعريف يحمل إليهم مع أحب الأشياء إلى نفوسهم ، ويطالعونه فى لحظات سرورهم ونشاطهم ، ويقدم إليهم فى صورة غير صورة الدرس الثقيل !

ومصر لا ينقصها الأبطال من جميع الأنواع فى تاريخها المديد فى العهود الفرعونية وفى عهود الإسلام على السواء ، وتاريخها الطويل المتصل الحلقات يتيح لها مجموعة ضخمة من الأبطال الذين يجب أن تعتز بتاريخهم ، وأن تقدس ذكراهم ، وأن تضرب بهم أمثالا عالية للناشئة من أبنائها ، وللجماهير من شعبها ، ولطلاب الدراسات والمعرفة فيها .

ولكن تلاميذنا فى المدارس وجماهيرنا فى المجتمع ، وطلابنا فى معاهد العلم ، لا يعرفون إلا القليل عن القليلين من هؤلاء الأبطال ، وإنهم ليعرفون عن أبطال الأمم الأوربية والأمريكية أضعاف ما يعلمون عن أبطال مصر خاصة والعالم الإسلامى على وجه العموم ، ودعك من أبطال الشرق كله إذا أردنا أن نرسم محيطا فى أوسع حدوده .

يعرف تلاميذنا عن نابليون أكثر مما يعرفون عن رمسيس ، ويعرفون عن غاريبالدى أكثر مما يعرفون عن أحمس ، ويعرفون عن مارتن لوثر أكثر مما يعرفون عن محمد عبده ، وهكذا وهكذا من الأسماء فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث على السواء .

أما نهضتنا القومية الأخيرة فلا يعرفون عن أبطالها إلا القليل مشوها أو مبتورا فى معظم الأحيان . فهم لا يعرفون إلا التافه القليل عن عرابى أول زعيم قزر للشخصية المصرية احترامها ووجودها ، ولا عن مصطفى كامل أول زعيم وطنى نفخ فى روح الكرامة القومية والنخوة الوطنية ، ولا عن محمد بك فريد أول زعيم وطنى ضرب مثلا للتضحية الخارقة ولا عن سعد زغلول أول زعيم وطنى عمم الشعور الوطنى فى جميع النفوس .

فإذا تجاوزنا مصر إلى العالم الإسلامى لم نجد تلاميذنا وطلابنا يعلمون إلا النليل الخاف عن أبطال الاسلام . ومما لاشك فيه أنهم يعرفون عن نابليون بونابرت ، ونلسون ، وغاريبالدى وبيتهوفن ، وكولمبوس ، وأمثالهم أكثر مما يعرفون عن خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن الناصر ، والفارابى ، وابن بطوطه وأمثالهم . وهذا نقص عجيب فى تربيتنا القومية والإسلامية .

وإن أمة تعتمد فى إثارة النخوة وحفز الهمة على أبطال من غير جنسها ، لهى أمة فاشلة فى تربيتها الروحية ، وقد كانت تلتمس لها الأعذار لو أن تاريخها خلو من الأبطال ، فأما إذا كانت تجد منهم عشرات ومئات فى التاريخ القديم والتاريخ الجديد ، وفى محيطها القومى الخاص ، ومحيطها الدينى العام ، فإنها تكون حينئذ مقصرة أشنع التقصير .

* * *

وهنا يجب أن نسجل أوائل نهضة محمودة فى هذا الاتجاه ، فلقد توجه جماعة من أدبائنا وجهة جديدة إلى دراسة البطولة الشرقية والمصرية ، فصدرت كتب كاملة عن محمد (صلى الله عليه وسلم) وأبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) ، وعن عبد الرحمن الداخل ، وعن غاندى ومصطفى كمال ، وعن عمر مكرم ومحمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد .

فيجب أن تطرد هذه النهضة فتصدر دراسات وافية عن أمثال خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى وابن سينا والفارابى وجمال الدين الأفغانى وعرابى، كما يجب أن تصدر دراسات وافية عن توت عنخ أمون وثورته الدينية ، وعن بنتاءور الشاعر المصرى القديم، وعن أحمس البطل المصرى الذى طرد الهكسوس ، وتحتمس مؤسس الأمبراطورية ورمسيس المحارب العظيم . . . الخ

على أن الدراسات العلمية والجامعية ليست هى كل مايطاب فى هذا الاتجاه، فقراء هذه الدراسات محدودون، وهم كبار السن على كل حال؛ وإنه ليعنينا قبل كل شىء أن نعرف هؤلاء الأبطال إلى أطفالنا الصغار وإلى جماهيرنا الغفيرة ، وهؤلاء لا يقرءون الدراسات العلمية ، ولا يصبرون عليها، فيجب أن نقدم لهم هؤلاء الأبطال فى صور أخرى جميلة وجذابة ومحبوبة .

ومما ييسر لنا هذه المهمة أن جميع الشعوب الحية قد سبقتنا إليها ، ومهدت الطريق أمامنا ، فليس علينا إلا أن نقتبس هذه الوسائل المهيأة المدروسة . تلك الوسائل هى القصة والأسطورة والصورة الملونة الجذابة ، والحكاية القصيرة ، والنادرة السريعة ، نضعها فى كل مكان تصل إليه أيدى الصغار وأيدى الجماهير .

فكتب المطالعة وكتب المحفوظات وكتب التاريخ ، والمتاحف المدرسية والمتاحف العامة ، والسينما والمسرح والأغانى ، واللعب والأدوات المدرسية وصناديق الحلوى ، وعلب الشيكولاته وسواها مما يصنع داخل البلاد ، يجب أن تكون جميعها وسائل لتعريف هؤلاء الأبطال إلى الجميع .

وعلى عاتق وزارة المعارف تقع التبعة الأولى بما تملك من الوسائل الكثيرة فى المدرسة ودور الثقافة العامة ، ولكن هذا عمل قومى يجب أن تقوم عليه هيئات أخرى بجانب وزارة المعارف ، فى مقدمتها هيئة الصحافة وهيئة الأدباء ودور النشر والهيئات الاجتماعية على اختلاف ميادين نشاطها فى أنحاء البلاد .

لقد اشتركت فى وضع كتاب مدرسى لمحفوظات الأطفال مع جماعة من الأساتذة الأدباء ، فكان أول ما اتجهت إليه أنظارنا أن نضمن كتابنا قصصا عن سير بعض الأبطال ، واخترنا لذلك شخصيتين إحداهما مصرية وهى شخصية رمسيس ، وثانيتهما عربية وهى شخصية صقر قريش، وحاولنا أن نرسمهما فى صورة جذابة مستعينين مع الحقائق التاريخية ببعض الأساطير ، ويجب أن تطرد هذه الروح فى كل ما يقدم للأطفال .

والأسطورة والقصة فى هذه السن هما أقرب الطرق إلى النفوس ، أما حين تتقدم السن وتتسع المعرفة فتصبح السيرة والتاريخ هما الوسيلتان المناسبتان لعرض حياة الأبطال .

وعلى هذا النحو ينبغى أن تتجه سياسة التعليم وسياسة التربية القومية ، فلا يكفى أن يجىء هـذا الهدف عرضا و بلا قصد أو لملء الفراغ فى الكتب والمناهج ، بل يجب أن تختـار مجموعات من أبطالنـا لكل فرقة من الفرق ، وتعرض بالطريقة المناسبة لعقلية التلاميذ فى كل مرحلة وأن تتعاون المواد المدرسية لتأدية هذا الغرض ، فلا تكون حصة التاريخ وحدها هى المعرض الوحيد .

إن دروس التاريخ والتربية الوطنية والمطالعة والمحفوظات والإملاء والإنشاء والنشاط المدرسى ، تصلح جميعا للمساهمة فى هذا الفرض الهام من أغراض التربية الشخصية والقومية التى تهتم بها جميع البلاد المتحضرة .

ويحسن أن ننبه هنا إلى أن التعريف بهؤلاء الأبطال على النسق المتبع فى دروس التاريخ ودروس تاريخ الأدب العربى أو تاريخ التربية ، قد يأتى بعكس المقصود منه ، وقد يكره هؤلاء الأبطال إلى نفوس الصغار و ينفر منهم نفوس الجماهير إذا فكرنا أن نقدم لهم دراسة عن هذه الشخصيات فى إذاعات الراديو مثلا على النسق المدرسى .

فعيب هذه الطريقة أنها تفقـد الموضوع الحياة والجاذبية وتقدمه نتفـا مقتضبة ، أو حوادث جافة ، أو سردا مملا لا يصبر عليه القارئون والمستمعون .

فالتشويق هو العنصر الأول الذى يجب أن يتوافر لطريقة العرض والتعريف . وإن صورة ملونة تحتها بعض السطور المشوقة عن بطل من الأبطال ، أو نادرة لطيفة ، أو واقعة مثيرة لخير ألف مرة من ذلك السرد الجاف لمولده ووفاته وأعماله !

و إن أسطورة خيالية ، أو قصة فنية ، تذاع عن بطل من الأبطال ، لأجدى ألف مرة من دراسة تحليلية تلقى بالراديو عن حياته وأعماله .

و إن تمثيلية أدبية تصور حياة بطل ووقائعها لأفضل ألف مرة من كتاب يضم تاريخه بالتفصيل بأسلوب لا يستفيد منه إلا الخواص .

ولسنا نحرم بهذا أن تصدر دراسات علمية تحليلية لهؤلاء الأبطال ، فهذه حلقة لابد منها لتكملة السلسلة ، إنما نريد أن تتخذ أشد الوسائل إغراء وجاذبية فى هذا الطور الأول ، بعد الإهمال الشديد الذى أهملناه لأبطالنا القدامى والمحدثين حتى نسيهم الناس ولم يعودوا يتطلعون إلى معرفة شىء عنهم لأنهم أموات فى نفوسهم ، بعيدون عن قلوبهم .

فلنجتهد أولا فى إيقاظ هؤلاء الأبطال فى نفوس الناشئة ونفوس الجماهير ، فإذا بعثوا من جديد بالوسائل المغرية المشوقة ، عدنا ندرس حياتهم دراسة تحليلية ونقدمها للخواص وهم عدد قليل فى جميع الشعوب .

* * *

فإذا تجاوزنا دائرة الأشخاص إلى دائرة الوقائع وجدنا أننا نهمل فى إبراز الأمجاد المصرية والإسلامية والشرقية كما نهمل فى إبراز الأبطال سواء بسواء .

فالتاريخ المصرى الخاص ، والتاريخ الإسلامى والشرقى العام حافل بالأمجاد التاريخية ، ولكننا لانجد لها إلا ظلا مشوها فى رءوسنا ، بينما نذكر بوضوح الأمجاد الأوروبية والأمريكية قديمها وحديثها على السواء .

ولقد وعى التاريخ لمصر العريقة أمجادا لا نظير لها بين جميع شعوب الأرض ، ولكن التاريخ المدرسى المشوه المبتور يصور لنا مصر فى صورة الأمة المستعبدة على مدى الأجيال ، ويلم بعصور استقلالها وعصور أمبراطوريتها قديما وحديثا مر العجالى المسرعين !

فأين أمجاد خوفو ورمسيس وتحتمس ، وأين الأمجاد العلمية والفنية التى يذخر بها التاريخ القديم ، إنها جميعا تذكر فى بضعة سطور مبتورة فى أسلوب جاف ، ولا تعقد بينها وبين المصرى المعاصر صلة من الصلات ، ولا تبث فيها الحياة التى تبعثها واضحة متحركة فى نفوس المصريين سلالة أصحاب هذه الأمجاد التى وعاها التاريخ فنسيها المصريون !

والأمجاد الإسلامية والشرقية عامة شأنها فى الإهمال شأن الأمجاد المصرية البحتة ، وإذا ذكرت فانما تذكر على سبيل السرد والإحصاء لا على سبيل الدراسة والإحياء .

ولن تبعث هذه الأمجاد حية نابضة إلا يوم تدخل النفوس من نافذة الأدب والفن ، فتحيا فى الأغانى والأناشيد والقصص والتمثيليات والأساطير ، ويوم يتناولها كذلك مؤرخون أدباء يحيلون مادة التاريخ الجافة قطعة نابضة من الحياة .

وهذا العمل الأخير أعسر وأندر لأن ملكة التاريخ الأدبى نادرة فى الشعوب ، ولكن الملكات الأدبية البحتة كثيرة وشائعة ، وفى الوسع توجيهها هذه الوجهة دون أن تفقد قيمتها الفنية .

ولن تعوز الفنان المصرى المادة الخامة التى يصوغ منها الأمجاد المصرية والإسلامية والشرقية حيثما امتد بصره رأى هذه الأمجاد على مرأى العين ، والثورة المصرية الأخيرة وحدها لا تزال منجما غنيا لم يستخرج منه إلا القليل .

كل ما ينقصنا هو الاتجاه ، وما أحوجنا إلى هذا الاتجاه ، ونحن نبنى أمجادنا الحديثة على أساس من أمجادنا القديمة ، ونحن فى مطلع فجر جديد بعد نوم مديد .

سيد قطب

صور من القاهرة المجهولة

فى تكايا الدراويش

بقلم الأستاذ محمد عبد الكريم

الجو صحو ، والسماء صافيـة ، والشمس تفيض باشراقها على السفح فتكشف ظاهره وخافيه ، وتبدى قاصيه ودانيه ، وتطلعه مشهدا رائعا ، يملك اللب ، ويأخذ بمجامع القلب.

نحن بمرقاة المقطم ، نسعى الى قلته ، ونهدف الى قمته ، لنطلع القارئ صـورة غريبة من صور القاهرة المجهولة ، صورة باسمة ، أخاذة نفاذة ، لحياة نفر من هؤلاء القليلين الذين ساءهم المجتمع وما عليه ، فهجروه ونبذوه ، واعتصموا بالجبـل يحيون فيه شعائرهم ، ويقيمون فى خلواته مناسكهم .

فهناك فى قلب هذا الطود الأغبر الأشهب ، وفى موات صخره المجدب ، تتنفس الحياة من زرع ناضر ونزل عامر ، يأوى اليه نفر من العابدين الزاهـدين من طائفة الدراويش المعروفين بالبكتاشية .

ما كان أمر البكتاشـية بذى بال لولا أنهـا بقية نادرة من تلك النكايا العتيقة نطلع بها مشهدا ناطقا لحياة بعض السالفين ، ونستقرئ فيهـا تطور الوضع الاجتماعى ومدى تقدم الحاضرين .

فلقد لبث كهف المغاورى نيفا وسبعمائة سنة معزلا للزاهدين وخلوة للمعتزلين ، كان مقرا لطائفة الدراويش المعروفين بالجلاليين ، فلما قضى بمصر الشـيخ عبـد الله المغاورى ناقل طريقة البكتاشـية عام ١٤٤٤ دفن فيـه ، غير أنه لم يصبح نزلا لرواد الطريقـة إلا فى عام ١٨٦٥

والبكتاشية طريقة صوفية غايتها الزهد ومقاومة الأهواء والتسامى بالاعتكاف على العبادة وهى تنتسب إلى السيد محمد بكتاش الخرسانى ، المنحدر كما يقول أتباعه من سـلاله الإمام على ، لذلك نراهم كشيعة العراق يقدسون الحسين ويحيون فى يوم عاشوراء ذكرى استشهاده فى حفلة يدعى اليها الوزراء والكبراء .

ومقر البكتاشية اليوم فى تيرانا بألبانيا وقد كان لها فى تركيا شأن عظيم حتى أن سلاطين آل عثمان كانوا يلثمون يد شيخها ولا يبعثون بحملاتهم فى الفتح إلا بعد أن يباركها الشيخ، وكان شعار الانكشارية أسورة سترة يعلقونها خلف عماماتهم رمزا ليد الشيخ بكتاش التى باركت لأول مرة جيش السلطان أورخان .

ميل سارت جى هارت . ميرجم ! !

ولم تطل حيرتى فى تفهم ماسمعت حتى عاد الدرويش لطفى الذى استقبلنى بباب التكية يفسر عبارته الألبانية فى عربية محرفة " أهلا وسهلا . . وجدناكم بخير " .

وقادنى مستقبل الى ردهة فسيحة حيث لاقانى السيد عابدين كاتم سر التكية الذى طاف بى أرجاء هذه الصومعة ، لا بل هذا الفردوس الرائع البديع .

ففى هذا المكان المعلق بين السماء والأرض ، أقام هذا النفر من الدراويش متحفا فنيا من أجمل متاحف البلد وأبدعها : فهناك مغارات حفرت فى الصخر لمسافات سحيقة فى وقت لم تعرف فيه المتفجرات ولا المفرقعات ، وهناك نافورات فريدة ولوحات فنية عديدة ومشارب رخامية ونصب تذكارية نسقت كلها باتقان على هذا الدرج المترامى الأطراف ، وهناك غير هذا إعجاز البشر : وآية مغالبة القدر ، هناك الأشجار الباسقة من نخيل وكافور نابتة زاهرة فى بحوات الحجر الأصم فترى الدوحة بما بذل فى غرسها من عناية وسقاية قائمة على جدب منبتها وارفة الظل مستقيمة العود أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

هناك فى هذا النعيم المقيم تعيش تلك الفئة الزاهدة عيشا هنيئا على بساطته ، سعيدا على إملاقة وقلته وحسبى أن أصحبك قليلا الى جنبات هذا المنزل لترى بعض ما رأيت وشاهدت .

ونحن فى ردهة المدخل تجاه ضريح المغاورى ، كهف كبير نقشت على مدخله بالكوفية القديمة بعض آيات سورة الكهف تدلف الى داخله فاذا بك فى غار سحيق ، تكاد ظلمته تخفى ما فيه ، لولا بصيص خافت يتسرب من منفذه فيتكشف عن مقابر متجاورة ، مقابر شيوخ التكية من يوم تعميرها وتنتهى هذه المقابر بأسوار حديدية فيها ضريح المغاورى وقد زينت جدرانه بالرخام الكهرمانى وثبتت فيه لوحة تحمل اسم مجدده سمو الأمير كمال الدين حسين ، فاذا خرجت من هذا القبو الرهيب ألفيت نفسك فى روض يرد اليك أنفاسك ويوقظ نفسك ويزيد إحساسك : هذه معالم الصومعة تميزها لوحات مشيديها، هناك مدخل يحمل اسم حيدر بابا يجاوره بناء باسم لطفى بابا وآخر لعباس بابا وكلهم من المشايخ الذين

تولوا فى القدم أمر هذه المؤسسة . وتحمل لوحات هـذه المنشآت أبياتا من الشعر التركى نورد ترجمة بعضها :

يقبت تكية المغاورى خرابا من سنين
وكان اليوم ينعق فى سقوفها ومبانيها
الى أن قيض الله لها خيرات العادل
أطال الله عمره وتقبل دعاءنا له .

ويقوم بستان التكة على مصاطب فسيحة منهـا ما فرش بالخضرة وما حلى بالفسيفساء الثمينة تتوسط أكثرها نافورات للماء بديعة الصنع ومشارب وأعمدة تحمل الشعار البكاشى وحوض يجـرى فيه السمك و برج كبير يهدر فيه الحمام وفى الصومعة مغارة كبيرة تتلى فيها الأذكار ومساكن للشيخ ودراويشه ومكتبة نقش على مدخلها الحديث . "أنا مدينـة العلم وعلى بابها" .

ولا يزال الزائر فى سيره يستقبل هبوا بعد هبو وهو بينها لا يرى غير الخضرة بما فيها من زهر وورد حتى إذا أشرف على نهاية الروض لقى مبدانا صغيرا فيه أحواض عشب تزينهـا بعض الأشجار المتحجرة وتحوطها ثلاثة أضرحة : واحد لصاحب السمو السلطانى المغفور له الأمير كمال الدين حسين ، وآخر لإحدى الأميرات ، وثالث للشيخ الحالى وقد حلى الأخير بأبيات لشاعرنا المعاصر أحمد رامى نورد منها :

ثم قريرا بين القطوف الدوانى ... عنـد سفح المقطم القيتان
فى حمى ساكن المغـاور عبد الـ ... ـله قطب الهدى وكنز الأمانى
إنهـا روضـة سقيت ثراهـا ... وتعهـدت غرسهـا بالحنـان
يا نزيل الخصيب فى أرض مصر ... بين هـذه الربى وتلك المغانى
رضى الله عن صنيعك فى الد ... نيـا وأولاك نعمـة الغفران

وفى ربى هذا الفردوس البديع حيث خلا المكان من كل حركة وصوت إلا خرير المـاء ينساب من نافوراته ، وهدير الحمام يسجع فى مقصوراته ، وقفت فى برج الصومعة المشرف على الفضاء فاذا بالبلد واضحة ظاهرة ، لم تعد قاهرتنا اليوم خافية ولا مجهولة ، هذى آثار القديم وأطلاله تبين فى منحدر التل فتظهره متحفا عامرا بكل ثمين نفيس وتلك معالم التاريخ مسطورة على السفح تطالعك قصة الماضى وافية كاملة ، قصة ألف عام مرت على القاهرة محتفظة بروائعها ، مبقية لى آثارها وبدائعها ، هذا عن المعزيين فى مآذن الأزهر العريق ، وذلك مجد صلاح الدين يتجلى فى سور القاهرة العتيق ، وتجاهك مسجد محمد على بمئذنتيه وقبته

تشهد برخاء عهده وعظيم نهضته وبين هذا وذاك يتكشف الفضاء عن مقابر الخلفاء، ومدافن الأولياء، فيها الخرب السقيم، والعامر السليم فاذا أرسلت الطرف إلى ما وراء هذه الأطلال، ألفيت العاصمة الحية تموج بساكنيها وتعج بذريها وأهليها، ربوع عامرة، وأحياء زاخرة، لكل ربع ذكره وبكل حى فى النفس أثره، هذى تلال زين العابدين بمدابغها ومخازنها فيها فعلة يعملون فى أوضاع أبنا من قبل سوءها، وسألنا المعنيين بالأمر العمل على اصلاحها، وهناك حى بولاق بما حوى من عشش وأخصاص بسطنا فى هذه الصحيفة قضية ساكنيه وتجاهك أحياء الحنيفة والمحجر، والمغربلين، والدرب الأحمر كلها مفتقرة إلى إصلاح ينهض بها، وتنظيم يرق بأمرها. وهناك عن بعد ترى النيل الجميل تشرف عليه العاصمة بأقبح مبانيها وأسوأ مافيها، فهناك مصانع بولاق بمداخنها ومضارب الطوب بقمائنها.

مولاى أحمد سرى بابا أفندم!

وغاص بى الفكر فى بحر التأمل ونسيت أنى فى ندوة الدراويش وأن دراسة حالهم هى غايتى وبغيتى لولا صوت انبعث من ورائى حتى إذا عادت للذهن يقظته ألفيت نفسى فى حضرة شيخ مهيب الطلعة تحف بوجهه المشرق لحية كبيرة بيضاء وقد ارتدى من فاخر الثياب مالا تراه فى غير صور الأقدمين ولوحات الفنانين: قفطان من الحرير الفاخر يعلوه معطف من الفرو الأبيض النادر وقد تحلى صدره بنفائس التحف من مشابك ماسية وخنجر ثمين وسلاسل ذهبية أثرية.

واستوى الشيخ أحمد سرى بابا على مقعده فى هيبة السلاطين وعظمة الحاكمين وبدأ يسألنى رأيى فيما شاهدت؟ قلت: "جنة عالية قطوفها دانية وعيونها جارية" قال: وما ترى فى حياتنا؟ قلت: هذا ما أود استيضاحكم أمره، قال: "نحن هنا نعيش على الكفاف، ولكنا أغنياء بالقناعة سعداء بالايمان" قلت هل لكم أوقاف أو أموال؟ قال: "لاهؤلاء ولاذؤلاء فكل ماناله من خزانة البلد سبعة وثلاثون قرشا كل شهر، قلت: "إذا فمن أين يعيش الرجال، قال: "من فيض الله بما يبذله لهم أهل البر وما يقدمه لهم زوار التكية"، ثم اعتدل الشيخ وقال وهو يداعب بأصابعه حبات مسبحته العاجية: إننى ورجالى مدينون بحياتنا وكياننا للبيت العلوى الكريم وعلى رأسه مليك البلاد الصالح الذى تنازل يوما بتشريفنا بالزيارة فتلك الصومعة التى عمرت بأمر جده العظيم اسماعيل، يقوم جل موردنا من فيض إحسان أمراء البيت المالك الكريم وإذا سألت الشيخ هل لرجاله عمل ما؟ أجاب: "كلهم يعملون، يعملون فى خدمة ضريح المغاورى وأضرحة من حل بيننا من الأمراء الأجلاء فضلا عن قيامهم بخدمة أنفسهم ونهوضهم بكل مايلزم التكية من كنس وسقاية".

وإذ عنّ لى أن أسأل الشيخ قيود الطريقة قال : " لاشيء سوى الاستقامة وسلامة الإيمان ، فليس ثمة ما يمنع الدرويش أن يتزوج وينصرف إلى عمل فنحن مسلمون ، ولا رهبنة فى الاسلام إنما نقصر المأوى هنا على المنقطعين من الغرباء " .

ولم يشأ الشيخ أن أودعه قبل أن يمدنى برساله المطبوعة فى تاريخ طائفته فتقبلتها وانصرفت شاكرا للرجل ما بذل .

التكايا بين الأمس واليوم :

لعل أظهر ميزة فى الاسلام أنه لم يفرق بين الدين والدنيا ، ولا يرى فى تدين المرء ما يجيز انقطاعه عن السعى لكسب العيش ، إنما تقوم رسالة المؤمن على سعى يذرع فيه مناكب الأرض ليأكل من رزقه كما كان يفعل الأنبياء أنفسهم ، لذلك لم يعرف الاسلام التكايا كدور يركن إليها السليم ليأكل ويشرب دون عمل يؤديه للمجتمع ، لذلك لم نر للمسلمين الأولين غير ما سمى بالمربط ، وهو البيت الذى أعد للعجزة أو للمنقطعات من النساء واليتامى ، وهو ما يعدل الملجأ عندنا اليوم . أما التكايا الحاضرة فترجع إلى أصل أعجمى ، فاسمها القديم الخانقاه وهى كلمة فارسية معناها دار العبادة ، وكانت أول خانقاه أنشئت بمصر فى عام ٦٥٩ أنشأها صلاح الدين يوسف بن أيوب للفقراء من الصوفية القادمين من البلاد النائية ووقف للصرف عليها أملاكا كثيرة ، وقد ظلت التكايا من ذلك الحين تتزايد وتتكاثر فكان بها حتى سبعين سنة خلت أكثر من ثلاثين تكية أهمها تكية القوصية والقادرية بقصر العينى ، والرومى بالحجر ، والسليمانية بالسروجية ، والنقشبندية والهنود والمغاربة وغيرها . ولقد حركت سوء أحوال ما بقى من هذه الكايا وعدم اتفاق وجودها وروح مصر الناهضة وخاصة ما كانت عليه تكية المولوية القائمة بالسروجية التى لم يكن لرجالها الأشداء عمل غير اقامة حفلة راقصة كل أسبوع يقوم المشايخ بالرقص فيها رقصة عجيبة إذ يدورون فيها حول أنفسهم فى ملابس فضفاضة على أنغام الناى وكانت حفلة المولوية موضع تفكهة الناس وخاصة الأجانب ، لذلك قامت وزارة الأوقاف فى السنين الأخيرة بالغاء هذه التكايا كلها بعد أن استصدرت حكما بذلك من المحكمة الشرعية العليا ولم تبق غير تكيتين علميتين لإيواء الطلبة الغرباء وهما تكيتا الكلشنى وأبى الذهب .

وهكذا طويت صفحة هذا القديم ولم يبق للدراويش غير تلك الدار التى جلوت لك أمرها والتى لا نرى حرجا من بقائها كصورة أثرية نادرة وتذكار للقديم وخاصة أنها لا تكلف البلد شيئا وأن رجالها الخمسة عشر يقومون فعلا بعمل يؤجرون عليه هو خدمة الأضرحة القائمة بها ورعاية التكية التى تعتبر كما رأينا متحفا جديرا بالزيارة والعناية

محمد عبد الكريم

كيف نتحرر من غرائز الشر ؟

بقلم الكاتبة زينب محمد حسين

يخيل الينا أحيانا أن غرائز الشر من الصفات الكامنة فى طبيعة الحيوان دون الانسان ، ومع ذلك إذا أمكننا أن نخلو لأنفسنا فى وقت ما كى نحاسبها على نزواتها أمام العقل والواقع أدركنا بغير عناء مدى نزوع كل منا إلى غريزة خاصة فى ناحية خاصة من الحياة ، تسىء إلى الانسانية بقدر ما تسىء إلى الشخص نفسه ، فتظهر عند البعض كنقائص دائمة يسببها ضعف التهذيب الخلقى الذى يحيط بالانسان فيعود به إلى عهد الهمجية والتوحش ، وتستتر عند البعض الآخر ممن صقلتهم المعرفة وسمت بأرواحهم وراء أقنعة من المظاهر والتقاليد .

وقد أجمعت الظواهر على أن الانسان ولد ومعه غريزة الشر ، فنحن نرى الطفل الصغير يلهو بلعبته التى يحبها وهو مسرور بها ثم لا يلبث أن يحطمها بحركة غريزية لاشعورية ، ونراه أيضا يداعب قطته الجميلة ، فاذا به يحاول أن يخنقها بيديه الصغيرتين . وفى هذين المثلين على بساطتهما ما يدلنا على وجود غريزة الهدم عند الأطفال بالفطرة .

ومهما اختلف العلماء فى أصل غريزة الشر وهل هى موجودة فى الانسان منذ وجوده أو حادثة عليه تتأصل فيه من الحياة المادية ، ولا تجد من يبعدها عنه أو يجترها منه ، فقد اتفقوا ضمنا على أن هناك أناسا يخضعون لغرائز الشر فى حياتهم ، كما أثبت الطب الحديث أن فى الانسان غدة تسمى (الغدة الادرينالينية) أو فوق الكلى أو الغدة الناجية . وهذه الغدة تفرز فى حالة الغضب مادة تسمى (الادرينالين) فتنشط الدم وتحفز الشخص وتكسبه قوة أكثر من قوته العادية .

وفى نفس الوقت تكبر وتنمو ومع نموها يصبح الانسان أكثر استعدادا للغضب ، فيثيره أقل الأشياء وأتفهها ، وتتخذ هذه الحالة شكلا اجراميا لمن كان ضعيف الارادة فيصبح شريرا ومن هنا ينشأ الاجرام .

وغرائز الشر كثيرة متعددة ، منها المحدودة الضرر التى تعود نتائجها غالبا على الفرد نفسه ، ومنها اللامحدودة التى تتعدى الفرد الى المجموع حيث يصير خطرها عظيما ، ونتائجها مخيفة .

فالتشاؤم ، والجبن ، واليأس ، والخجل ، والغضب ، والانغماس فى الملذات من الغرائز المحدودة الضرر .

وغريزة التشاؤم ضعف خلقى يتولد عادة فى النفس أثر صدمات متلاحقة تصيب شخصا ضعيف الارادة فتحطم روحه وتزعزع عقائده .

وهذه الغريزة اذا أصابت أمة عجزت عن الرقى ، ولم تتقدم خطوة فى مضمار الحضارة . ومن المصلحين قوم ينصبون أنفسهم دعاة للإصلاح وفى الوقت نفسه يسرفون فى التشاؤم اسرافا عجيبا يقطع معه كل أمل فى الاصلاح والتقدم . واذا سرت هذه الروح فى جسم الأمة ثبطت عزائم أبنائها وقعدت بهم عن السعى فى سبل التقدم ، وفقدوا الأمل فقدانا لا يترك معه متنفسا للرقى ، فيؤدى هذا حتما الى انكارهم حقائق الحياة والى سيطرة الأوهام الفاسدة عليهم ، ويطشأ عن هذا الخوف والجبن .

وغريزة الجبن نتيجة حتمية لغريزة التشاؤم ، فالمتشائم الذى كست الأوهام أفكاره بسوا دالوانها لايمكن مطلقا أن يقدم على مواجهة صعاب الحياة بنفس فرحة مطمئنة ، ولذلك يقف حين يجب عليه أن يتقدم ، ويبطئ حين يجب عليه أن يسرع ، تهزه أقل الحركات ، وتنغص عيشه أبسط العقبات . ورب لحظة تردد قد تضيع عليه فرصة ذهبية ربما كان لها أثر كبير فى بناء مستقبله ، وتكوين حياته كفرد ناجح فى الحياة .

كذلك اليأس فهو صاحب للجبن والتشاؤم ، فمن تشاءم من شىء وجبن عن مواجهته تولدت فى نفسه عوامل اليأس من الحياة ومن احتمال مشقاتها والنضال فى سبيل العيش ، فتخور عزيمته ويؤثر أن يتخلص من حياته بالانتحار ، وبفقده تفقد الأمة عضوا كان يمكنه بالقليل من الروية والتبصر أن يساهم فى رقيها وسلامتها .

أما الخجل فهو غريزة تتولد مع الطفل فى طوره الأول عند مايجاهر بأفكاره الساذجة المحدودة فيصدم فيها من أهله وأقاربه الذين يظنون أن التربية معناها جهل الطفل بكل مايحيطه حتى يبلغ بهم الأمر الى إيذائه ، فيقعد عن إبداء آرائه خشية أن يصطدم فيها ، و يتعود على ذلك حتى تقوى فيه غريزة الخجل وتحل فى نفسه محلا يؤثر فى أكثر الأحيان على حياته العملية .

وقد علمت أن كاتبا كبيرا مشهورا بالخجل قد بلغ به ذلك الخجل مبلغا لم يمكّنه ذات مرة من مخاطبة الجمهور خمس دقائق من وراء المذياع إلا وكان يتصبب عرقا ويرتعد رعبا وخوفا ، وهذا النقص سببه ولا شك القسوة التي عاناها إبان تربيته .

أما غريزة الغضب فهي غريزة تشترك مع الغرائز المحدودة وغير المحدودة الضرر ، فقد تكون قاصرة على الشخص نفسه فلا تمتد الى غيره ، وقد تحمله على ارتكاب الجرائم والانتقام و إيذاء القليل وقديما قالوا : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

وغريزة الغضب كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميول ولا صلة بينه وبين المعاني التي تفرغ لها الذهن ، ويخالفها في أن الخوف يحمل المرء على الفرار ، أما الغضب فيفضي به الى التحرش والهجوم .

ولا شك أن الغدة الادرينالينية التي عناها الطب في تحديد أسباب غرائز الشر لا تؤدي مهمتها إلا ساعة الغضب ، وهي كما قلنا تعطي الجسم قوة تحفّزه للفتك كالوحش الكاسر ساعة الافتراس .

وقد شبّه بعضهم الغضب بالأفعى ذات الملمس اللين إذا بطشت غدرت ، وكالقوة الغاشمة إذا حكمت بظلمت ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم على من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له : لا تغضب .

ومما قرأته عن الأمام علي كرم الله وجهه أنه كان يحارب في إحدى المواقع وكان أحد الكفار قد آذى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان يسفّه دعوته ، وينال من رسالته ، فوقع في تلك الحرب تحت يد علي بن أبي طالب فطرحه أرضا وكاد يقضي عليه اولا أن الرجل بصق في وجه الإمام علي ، فقام الامام عنه وخلى سبيله . فسئل : لم عفوت عن عدو الله لا سيما وقد بصق في وجهك؟ فقال : "خفت إن قتلته أن يقال عني إنني قتلته بعد أن أغضبني وتغل في وجهي ، ولا يقال إنني قتلته جهادا في سبيل الله" . . . ولكن كم فينا من هم مثل ابن أبي طالب رحمه الله يمكنهم أن يتسامحوا في حقوقهم والاعتداء عليهم ومقابلة الإساءة بالإحسان ؟

وبما أن الكلام عن الغضب قد ساقنا حتما إلى الغرائز غير المحدودة الضرر فسنتكلم عن باقي تلك الغرائز وهي حب النفس والسرقة والقتل وروح الهدم .

فغريزة حب النفس أو الأثرة غريزة خطرة تقود صاحبها حتما إلى الاجرام ، فقد تعوّد أن يرى الأشياء مملوكة له ولذلك فهو يريد دائما أن يحصل على كل ما يطلب ويشتهي ،

ولن تقف فى سبيله أى عقبة ما دامت روحه الجشعة قد تشبعت بشرور الأنانية وحب النفس ولسوف يتخطاها مهما كانت نتائجها وخيمة ، ووسائلها تتعارض مع مقتضيات الشرف والفضيلة .

وكثيرا ما أدت غريزة حب النفس إلى ارتكاب أعظم الجرائم الأخلاقية كذلك إلى القتل والسرقة .

وغريزة القتل كما نعرف جميعا من أخطر الغرائز الإجرامية اللامحدودة الضرر ، وأصحابها يتشابهون كثيرا مع أصحاب غريزة الهدم ولكنهم يفوقونهم فى نقص الوازع الدينى .

فهم إما يقتلون لحب سفك الدماء تحت تأثير أمراض عصبية ، وإما تبعا للبيئة التى تحيط بهم ، ومن هؤلاء أهالى الصعيد الذين يتساهلون فى ارتكاب تلك الجريمة وكأنها شىء عادى لديهم يثيره أبسط الأشياء وأتفهها . وكم من جرائم قتل ترتكب هناك باسم الأخذ بالثار وسرقة كوز من الذرة أو حفنة من القمح .

أما روح الهدم فهى غريزة متفشية عندنا بين الكبار والصغار وترجع مسبباتها أيضا إلى الأمراض العصبية ، كذلك إلى البيئة والوسط كما ترجع إلى بعض العقائد التى يعتقدها بعض المفكرين من أن الهدم وسيلة من وسائل البحث عن الحقيقة وأشهر هؤلاء "بول بورجيه" وأفكاره فى ذلك مجسمة فى روايته "التلميذ" .

وغريزة الهدم من الغرائز الخطرة المؤذية ، فصاحبها ميال دائما إلى هدم ما يراه قويا ، وتشويه ما يراه جميلا . وليس أدل على ذلك من محاربة بعض الناس دائما لصغار الأدباء والشعراء الذين يتجرأون يوما على إظهار بعض ثمرات قرائحهم التى غالبا ما تكون ناضجة طيبة ، ومع ذلك يأبى هؤلاء إلا تشويهها وتحطيمها ، فتنشط الأقلام وتتكاتف ضد تلك القرائح الفتية حتى تثبط هممهم وتميت عزائمهم .

وهؤلاء يتساوون فى نظرى مع من نراه جالسا فى السيارات العامة وبيده مشرط أو مطواة يمزق بها أغطية المقاعد ، أو أولئك الأطفال الذين يلقون الأحجار فى أوقات لعبهم على نوافذ الدور الآمنة ليحطموا زجاجها .

والأمثلة على غريزة الهدم كثيرة وأصحابها يتساوون فى طباعهم سواء فى ذلك الرجال والأطفال والنساء .

وها كم دليلا ملموسا يؤيد وجود هذه الغريزة فى النساء أيضا ، فقد زارنا من شهور بعض الزوار بينهن آنسة تبدو عليها العصبية وحدة الطبع ، ظلت طيلة مدة جلوسها تنبش

فى أحد مقاعد الصالون بأظافرها الطويلة حتى أحدثت فيه تشويها ظاهرا، وكنت ألاحظها مغيظة متعجبة ومع ذلك لم أملك أن أمنعها أو أنهرها إكراما لواجب الضيافة ومراعاة لشعورها ولما كدى من عدم إدراكها ما تفعل وهى منقادة لغريزة الهدم التى تسيطر على أعصابها .

* * *

ونخرج من هذا البحث بنتيجة ظاهرة وهى أن لفساد التربية وانحطاط البيئة أعظم الأثر إما فى إنماء غريزة الشر وإما فى تكوينها .

فلو اتبعت كل أم الطرق الصالحة فى تربية أولادها وهيأت لهم بيئة حسنة لما احتاج الأمر منا إلى كثير عناء فى القضاء على غرائز الشر والتحرر منها .

وأول ما يجب عليها أن تفعله فى هذا الأمر هو تنقية الوسط الذى يحيط بطفلها من كل ما يلوث نفسه الصغيرة من أدران الحياة، وذلك بعزله فى غرفة بعيدة على قدر المستطاع عن كل ما يدور فى محيط الأسرة من أشياء ربما كان الأفضل له ألا تنفذ إليه ، فاذا توافر له ذلك ظلت هناك عقبة تكوينه وتربيته، فكثير من الأمهات يعتمدن فى تربية أولادهن على الخدم والمربيات، ومع ذلك فقد ظهر عقم تلك الطريقة واضحا لكثير من الأسباب ، منها عدم اختيار المرأة الصالحة للقيام بتلك المهمة العظيمة، كذلك عدم إشراف الأم بذاتها على سير تلك المهمة ، فتكون النتيجة أن يتعود الطفل على أخلاق خادمته أو مربيته ، ويتشبع بسيىء غرائزها ، فتفشل كل المجهودات التى أردنا بها أن نهذب غرائز الشر فيه ، إذا كانت وراثية ، أو القضاء عليها إن كانت عارضة .

وأرى فى ذلك أن تتولى الأم بنفسها القيام بتربية طفلها . وليس هناك أى عار لها إذا فعلت ذلك ، بل العار كل العار أن تنجب ولدا لا تعرف كيف تكون له أما ، وأن تطالبه بعد ذلك بمحبتها، وتجبره على احترامها، وهى التى حرمته من أبسط واجبات الأمومة وأنفت أن تغمره بالقليل من رحمتها .

فاذا تم لها تخصيص غرفة له والعمل على تنقية البيئة التى تحيطه ، تكون قد قامت نحوه بالخطوة الأولى من واجباتها ، وفى مقالى الماضى " الأسرة السعيدة " كثير من العوامل التى تساعد على نجاح تلك الخطوة وأهم تلك العوامل وجود الهدوء المنزلى فى محيط الأسرة ، ووجود الذوق الفنى .

وبعد ذلك تضع الأم كل اهتمامها فى درس مدى استعداد طفلها لتفهم الأشياء ، وتقف على ميوله فتتخذ منها مقياسا للطريقة المثلى فى تربيته وتكوينه . فتبدأ فى تنمية ميوله الفاضلة، وتهذيب ميوله الشريرة بالعقل والحكمة حتى يبدأ فى تفهم الأشياء .

وبعدئذ تبث فى نفسه العقائد الدينية الفاضلة ، وتملأ قلبه الصغير بالإيمان حتى يتسنى لها توجيهه كيفما شاءت ، ثم تدأب على تربية عواطف الخير فى نفسه ، ويكون ذلك بسرد القصص المشوقة الطريفة التى تحببه فى عمل الخير والبر بالفقير والعطف عليه، والصبر والجلد والتسامح واحترام مصالح الغير، ثم تعوده الطاعة مع الاحتفاظ بالكرامة، والاقدام مع الشهامة والشرف ، وضبط النفس فى الملمات ، وتضحية الذات فى سبيل مصلحة المجموع حتى إذا ما أوشك على السابعة اشتركت المدرسة معها فى إتمام تكوينه ورسم مستقبله .

وبهذه المعونة المشتركة يشب الطفل عفيفا أبى النفس مطواعا فيسهل توجيهه دائما إلى طرق الخير والانسانية بعد أن كبحت فى نفسه غرائز الشر وتحرر من إغرائها .

هذه هى مرحلة الطفولة ولها على ما مرف كل الأثر فى تربية الشعور وتوجيه الفرد فى الحياة، فعسى أن تنشط كل الأمهات للاهتمام بتلك المرحلة كى يتحقق لنا أن نرى ذلك الجيل الجديد الذى نهفو لرؤيته ، جيل الانسان السامى المنزه عن كل ما يشين .

أما من تخطوا مرحلة الطفولة بعيدا عن أيدى المربين والرقباء، فهناك وسيلتان اتبعتهما الأمم الراقية للحد من شرورهم وتهذيب غرائزهم .

فالدول الأوروبية قد توصلت إلى علاج هؤلاء باستئصال الغدة الادرينالينية ، أما فى أمريكا فقد اهتموا بإنشاء المعاهد التى يشرف عليها نخبة من أطباء النفس والجسد، يدرسون حالة المجرمين من الصبيان الذين يلتقطونهم من الشوارع ، ثم يعملون بشتى الطرق النفسانية والجسمانية على تحريرهم من شر غرائزهم ، وتوجيههم الى الوجهة الصالحة فى طريق الخير .

وقد كان ضمن الأفلام الأمريكية التى عرضت فى مصر فيلم اسمه (رجال مدينة الأطفال) أظهر بوضوح جهود تلك المعاهد فى سبيل تأدية رسالتها السامية ، وكيف تخلق من هؤلاء المجرمين المرضى بغرائز الشر والاجرام ، رجالا مهذبين يساهمون فى العمل على مجد وطنهم وإعلاء شأنه ، بدلا من أن يكونوا أبالسة الشر وشياطين الاجرام .

فياحبذا لو فكرنا نحن أيضا فى اتباع مثل هذه الطرق العلمية والعملية حتى يمكننا أن نوقف ما استطعنا ضرر هذا الانحدار الخلقى، فنقضى على الجريمة ونتحرر ويتحرر معنا المجتمع من شر غرائزنا .

زينب محمد حسين

الثقافة الغذائية وعلاقتها بالصحة والاقتصاد

نحن شعب جائع ، لا لأننا لانجد ما نأكله ، بل لأننا لانعرف ما نأكله ! وكثيرا ما نملأ بطوننا بمواد ثقيلة الحجم ، متعبة الهضم ، يخرج الجسم منها جائعا فى النهاية ، بعد أن ينفق فى هضمها ما يعادل أو ينقص قليلا عما يستفيد منها ، فضلا على ما تخلفه من تلف لأجهزة الهضم جميعا .

وسبب هذه الحالة أن الثقافة الغذائية معدومة أو كالمعدومة حتى فى أوساط المتعلمين ، وأن المطبخ المصرى يعنى بالحجم والطعم ، قبل أن يعنى بالقيمة الغذائية والفائدة الصحية ، ومن هنا تكثر المواد الدهنية وتكثر التوابل فى أطعمتنا ، وتقل الخضر والفاكهة على وجه العموم ، والخضر النيئة والبقول الحرة على وجه الخصوص .

وعلة هذا الجهل بالثقافة الغذائية أننا نظن أن مسألة تافهة لا تستحق العناية ، فى حين أنها ذات أثر حاسم فى الصحة العامة ، وفى الاقتصاد الفردى ، والاقتصاد القومى على السواء :

١ — فأما أنها ذات أثر فى الصحة العامة ، فبيانه أن الجسم يحتاج الى كميات معينة من العناصر الغذائية المعينة ، وهذه العناصر موزعة بنسب خاصة فى المواد الغذائية ، و بعضها كالفيتامينات ضرورى جدا للصحة بل للحياة وهو يوجد بكميات مختلفة فى بعض الأغذية ، ويموت أو يتحال تحت تأثير عدة عوامل ، كالحرارة وطول المدة وسواهما .

فمعرفة هذه المعلومات ، والوقوف على حاجات الجسم فى كل من حالتى الراحة والعمل ، وفى أنواع العمل المختلفة مهم جدا فى توفير هذه الحاجات ، والاحتفاظ بالصحة ، وتجديد ما ينفق فى مختلف أنواع النشاط . كما أنه مهم فى الوقوف من حشو المعدة بمواد ليس الجسم بحاجة اليها ، فهى تثقله وتتخلف فيه وتعوقه عن أداء وظائفه فى بعض الأحيان .

وهذه المعرفة واجبة من ناحية أخرى . فتوزيع العناصر الغذائية فى المواد المختلفة تختلف نسبه بعضها عن بعض ، و بعض هذه المواد ثقيل الهضم قليل العناصر المفيدة ، و بعضها خفيف الهضم كثير العناصر الأساسية للتغذية . والوقوف على هذه الحقيقة يفيد فى حسن الاختيار .

٢ — وأما أنها ذات أثر فى الاقتصاد الفردى ، فبيانه أن كثيرا من أفراد الطبقة الفقيرة وأفراد الطبقة المتوسطة — وهم على العموم محدودو الدخل — ينفقون معظم مواردهم فى الطعام ، فهو المصرف الأساسى لواردهم المحدودة . وجهلهم جميعا بالقيمة الغذائية لأنواع الطعام ، ثم جهلهم كذلك بحاجة أجسامهم الحقيقية من الغذاء ، يحملهم على شراء مواد قد لاتفى بحاجات الجسم فيبقون جائعين ولو كانت معدتهم مليئة — أو يتجاوزون هذه الحاجات فيكونون مسرفين فى مواردهم الضئيلة .

أو قد يقع أن يشتروا مواد غذائية غالية الثمن تنوء بها مواردهم ، فى حين أنهم يستطيعون الحصول لى نظائرها فى مواد أخرى رخيصة ، بل ربما زادت فائدة هذه الأطعمة الرخيصة من الوجهة الغذائية على فائدة تلك المواد المرتفعة الأسعار .

ومن رحمة الله بالناس أن جعل كثيرا من المواد الرخيصة المتوافرة غنية بجميع أنواع العناصر الغذائية ومن الأمثلة القريبة أن أنواع الفيتامينات المختلفة قلما تجتمع فى مادة واحدة كما تجتمع فى الطماطم ، وأن أجود أنواع الحديد وأسرعها هضما يوجد فى الجرجير والخس والجزر ، وأن الكلسيوم يوجد بوفرة فى اللفت ورءوس الفجل وأن المواد البروتينية توجد فى العدس والفول وذوات الفلقتين على العموم ، وأن الزلال ومعظم المواد التى تحويها اللحوم ، يمكن أن توجد فى الجبنة والألبان ... وهكذا .

ومتى عرف الفرد العادى هذه المعلومات أمكنه استخدام ثمن الغذاء أفضل استخدام ، يجمع بين الرخص والفائدة وبين الاقتصاد والصحة على أيسر سبيل .

٣ — وأما انها ذات أثر فى الاقتصاد القومى ، فذلك من عدة وجوه :

ذلك أن الاقتصاد القومى وثيق العلاقة بالاقتصاد الفردى ، ومعظم أوجه النقص فى الاقتصاد القومى منشؤها سوء التصرف فى الاقتصاد الفردى ، وأبسط ما يصور ذلك هو الادخار العام الذى ينفع عند الطوارئ ويثبت الحالة المالية العامة ، فهذا الادخار من عمل الأفراد ومتوقف على حسن تصرف الأفراد ، وإذا كان الغذاء كما قلنا يستغرق معظم موارد الطبقة المتوسطة وجميع موارد الطبقة الفقيرة ، فإن تنظيم التغذية يعود بالخير الكبير على الاقتصاد الفردى وعلى الاقتصاد القومى من هذا الطريق .

ثم إن الاقتصاد القومى وثيق العلاقة كذلك بنوع المواد التى تستهلك للغذاء ، فإذا ثبت أن المنتجات المحلية أو بعضها يحتوى قيمة غذائية عالية كان لهذا أثره فى الاستكثار من هذه المنتجات وقلة استيراد ما يعادلها أو يقل عنها غذائيا من المواد الأجنبية . وفى هذا فائدة مؤكدة تستحق الثقافة الغذائية من أجلها العناية والاهتمام .

ويبقى بعد هذا وذلك أن الثقافة الغذائية بما توفره من الصحة الفردية تؤثر فى الاقتصاد القومى بلا شك ، فالصحة رأس مال حاضر ، بل رأس مال رابح بما ينتجه من الطاقة التى تنتج المال بدورها ، وتزيد فى الارباح .

ليست الثقافة الغذائية إذن مسألة ثانوية ، وليست كمالية ، وليست ترفا عقليا كما يفهم الكثيرون ! إنما هى دعامة قوية من دعائم الإصلاح الصحى والاقتصادى والاجتماعى ، وهى من هذه الوجهة تستحق أن نفكر تفكيرا جديا فى نشرها بين الجميع .

وقد يبدو مستحيلا أو صعبا أن ننشر هـذه الثقافة بين الجهلاء والأميين حيث تقف فى وجوهنا عقبات كثيرة متعددة الاتجاهات . فالجهل قد يحول بيننا وبين الملايين من أبناء البلاد كما تحول العادات المرعية فى نظام الطعام وفى المواد التى اعتاد الناس تناولها وفى طريقة اعدادها أيضا ، وكذلك تتدخل طبيعة الإقليم والمواد التى ينتجها فى العادة دون الانتفاع بالثقافة الغذائية .

ولكن هذه الاستحالة أو الصعوبة إن هى إلا وهم من الأوهام . فأما من ناحية الجهل فإننا لن نضطر إلى استخدام اللغة العلمية فى تفهيم هؤلاء الملايين حتى يتعـذر عليهم فهمها ولن نملأ أشداقنا بالاصطلاحات الصعبة التى لا تفيد أحدا ، ويكفى أن نقول : إن فى هذه المـادة فائدة للجسم أكثر من فائدة هذه المـادة ، وأن نضع أمام الجماهير قوائم بمواد كثيرة نافعة ورخيصة ونترك لهم الاختيار .

وأما من ناحية العادات الغذائية فيما يختص بمواد الطعام وبطريقة إعدادها كذلك ، فإننا نستطيع أن نستعرض المواد التى يتغذى بها هؤلاء الناس عادة فى كل إقليم ثم نفاضل بينها ونختار أصلحها وأرخصها ، ثم نبين أفضل طرائق إعدادها مما قد يكون متبعا فى الاقليم ذاته .

وأما من ناحية طبيعة الإقليم والمواد التى ينتجها ، فإننا سنجد فى منتجات كل منطقة طائفة صالحة للتغذية ، ومصر تنتج معظم المواد الغذائية الصالحة فى جميع مناطقها .

لن تكون الصعوبة إذن من هـذه الناحية ، ولكنها ستجىء من ناحية توفير المرشدين الذين يعرفون الثقافة الغذائية ويعرفون طبيعة كل منطقة والأنواع المتوافرة فيها وأسعار هذه الأنواع ، ويعرفون عادات أهلها وطرائق إعدادهم للطعام ، وستجىء كذلك من ناحية وسائل الإرشاد التى يملكها هؤلاء المرشدون ، ويضمنون بها تأدية واجبهم بين الملايين .

ولعل هـذا البيان أن يظهر أن المسألة جد لا هزل ، وأنها فى حاجة إلى جهد ضخم وسياسة ثابتة وخطة منظمة .

ولقد كان معالى وزير الصحة الحالى فى مقدمة المعنيين بدراسة مسألة الغذاء الشعبى ، فقدم معززيلين كبيرين من زملائه الأطباء تقريرا إلى الاتحاد الملكى الطبى عن هذا الموضوع ، فوجود معاليه الآن على رأس وزارة الصحة فرصة سانحة لإتمام هذه البحوث وتوسيع دائرة الإرشاد فى الأوساط الشعبية التى تجوع الآن ولو اكتظت معداتها بالطعام .

المرأة عدوة التدخين

تنقلب من المدخنين !

ميزانيـة التدخين للرجل تستنفد جزءا كبيرا من دخله ، ولا سيما الطبقات المتوسطة الفقيرة ، ولقد تبلغ هذه الميزانيـة فى بعض الأحيان ثلث أو نصف الدخل اليومى لبعض الطبقات ، فكثيرا ما نرى عاملا لا يتجاوز أجره اليومى ستة قروش ، وهو يدخن فى اليوم بقرشين ، ويكون مصابا بداء آخر هو داء الشاى الأسود فينفق فيه قرشين آخرين ولا يبقى لغذائه وغذاء عياله إلا قرشان . ثم يشكو الفقر و يشكو الجوع !

على أن أفراد الطبقة المتوسطة ليس حالهم نسبيا بأحسن من هذه الحال ، فكثيرا ما نرى موظفا يتقاضى خمسة عشر جنيها فيمسك منها بثلاثة جنيهات ، ويدخن منها بثلاثة جنيهات ، أى أن ميزانيـة التدخين تعادل ميزانيـة السكنى له ولأسرته ، وهو اسراف لا شك فيه .

وقد ألفنا أن نرى المرأة فى البيت أكبر أعداء التدخين ، لأنه يضايقها فى ميزانية الأسرة و يضيع عليها مبلغا ضخما تحتاج إليه فى تدبير شؤون المنزل ، ورعاية شؤون الأبناء ، وتوفير وسائل الحياة ووسائل الزينة كذلك .

وكثيرا ما كان هذا العداء المستحكم بين المرأة فى البيت و بين التدخين ، يعود بالفائدة على الأسرة لأن شعور الرجل باستمرار أن التدخين يضايق امرأته ، يجعله يخفف منه و يقلل من ميزانيته ان لم ينقطع عنه بتاتا ، كما حدث فى حالات كثيرة أعلمها .

والمرأة — بحمد الله — كفيلة بأن يترك الرجل كل شىء وأن يقبل كل شىء بإلحاحها وثباتها و إصرارها على المضايقات أو الإيحاءات ، وكثيرا ما يتخلى الرجل عن أهله الأقربين ، بل عن أطفاله — أكباده التى تمشى على الأرض — لأن هناك امرأة توسوس له باستمرار وتلاحقه بمضايقاتها ، من هؤلاء الأهل ومن هذه الأكباد ، فليس بكثير على هذه المرأة أن تجعله يترك التدخين بوسائلها الدائبة الملحة المعروفة .

ولكن وقعت الكارثة — والعياذ بالله — وا قلبت المرأة تدخن وتنفث الدخان فى جو الأسرة بعد أن كانت عدوة لدودا للتدخين ، وهنا فقدنا — أو نكاد — عنصرا قويا من عناصر المقاومة فى البيت والمجتمع .

وهذا الانقلاب خطر من جميع الوجوه : خطر من الوجهة الاقتصادية ، وخطر من الوجهة الصحية ، وخطر من الوجهة الاجتماعية على السواء .

فأما خطره الاقتصادى ، فيرجع إلى تضاعف ميزانية التدخين فى البيت الواحد ، فالمعقول طبعا ان يكون زوج المرأة المدخنة مدخنا ، فترتفع نفقات التدخين إلى نحو ثلث الدخل فى الطبقات المتوسطة ، مما يؤدى إلى ضغط ميزانية المصروفات اليومية ، ويعطل كثيرا من المطالب الحيوية ويعود على البيت ومن فيه من الأطفال بالحرمان والضيق .

وأما خطره الصحى فلا يحتاج إلى الحديث ، ومن المؤكد أن صدر المرأة أضعف من صدر الرجل ، فإذا كان التدخين يضنى بالرجل ما يضنى من السعال وضيق التنفس وفقدان المقدرة على الحركة المتصلة أو المشى السريع — ودعك من الجوى — فسيضنى بالمرأة أشد مما يضنى بالرجل .

ثم يالضيعة الأنفاس المعطرة والشفاه الرقيقة التى نالت من الشعراء فى جميع العصور أرق أبيات الغزل وأبدع آيات الغناء .

وإنه لحرام أن يضيع هذا كله ، فما يبقى هناك معنى للأنفاس العاطرة والفم يطفح برائحة الدخان النتنة ، وما يبقى هناك معنى للشفاه الرقيقة وفيها لفافة تدمغها بالنيكوتين هى ولأنامل التى طالما تغزل فيها الشعراء .

ولعبة الله على المودة " القذرة " التى تنسى المرأة أناقتها ونظافتها ورائحتها وصحتها وتحيلها " مدخنة " بكل ما فى هذه الكلمة النابية من معنى ومن "دخان" .

وأما خطره الاجتماعى ، فكامن فى تقليد الأطفال الصغار لأمهاتهم فى التدخين منذ الطفولة ، ومن الثابت أن المرأة ذات تأثير حاسم فى ميول الطفل واتجاهاته المقبلة ، وطفل يبصر النور ويبصر معه أمه تدخن ، ما من شك فى أنه مصاب بالتدخين لامحالة فى مقبل الأيام .

وقد كان امتناع المرأة عن التدخين وعداؤها البالغ له من الأسباب القوية فى تقليل عدد المدخنين نسبيا بما كانت تثبته فى نفس طفلها من كراهة التدخين وهو صغير ، فنشأ كارها له فى الغالب . وإن طفلا يرى أمه تتأفف من رائحة الدخان مرة ومرة — وهو حدث — ليستقر فى " شعوره " النفور منه ، وغالبا ما يظل ينفر منه بعد أن يكبر بتأثير هذا الإيحاء الأموى ، ولو عرضت له شتى المغريات .

فتدخين المرأة من هذه الناحية تهديد شديد للجيل المقبل ، وخطر جاثم على الطفولة الحالية . والشر من المرأة دائما يكون مضاعف الأثر بسبب هذا الوضع الطبيعى الذى تفرضه الطبيعة من تأثير الأم فى الأبناء فى سن يعجزون فيها عن التمييز .

ولعل تكون هذه جناية الرجل ، فقد ظلت المرأة تقاوم عادة التدخين وتستنذرها وتتأفف منها . وإنه لمما يدعو إلى الرثاء حقا أن تجبر زوجة لا تدخن على أن تقبل رائحة التدخين من

فم زوج مُدخن ! و إن الواحد ممن لا يدخنون ليتأفف من صديقه أو من جاره فى الترام أو فى السينما حينما يروح يطلق هذه الأدخنة التى تسمم الجو من حوله وتكتم الأنفاس فى صدره، و إنه ليبتعد كلما مد اليه هذا المدخن فمه للحديث، وانطلقت منه تلك الرائحة المقززة التى تنبعث من أفواه المدخنين .

فالمرأة معذورة ولا شك إذا هى " قرفت " من زوجها المدخن متى كانت لا تشاركه ، أى إذا كانت لا تزال تتمتع بحاسة شم سليمة لم يؤثر فيها التدخين فيفقدها اياها كما يفقدها الرجل المدخن. وقد كنا خليقين أن نلتمس لها العذر فى اقبالها على التدخين أخيرا لتشارك زوجها رائحته المزعجة حتى تطيق احتمال القرب منه ، وحتى لاتفسد حياتهما الزوجية بسبب نفورها المتكرر و بسبب اضطرارها لإظهار التقزز كلما دنا فمه منها .

كنا خليقين أن نلتمس لها العذر لو كنا نعلم أن هذا هو الدافع الحقيق لها ، ولكننا واثقون أن السبب الأصيل هو "المودة" السخيفة التى انتقلت من نساء المواخير والصالونات إلى نساء البيوت والأسر ، وهو الفتنة بالتقليد الأعمى الذى لا يفرق بين نافع وضار ، أو بين طيب وردىء .

وهذه الإعلانات المجرمة التى ترسم سيدات تسميهن " الطبقة الراقية " وفى أفواههن سجائر من نوع معين . إنها عامل من عوامل هذه الفتنة ، يجب على السلطات المسئولة — وبخاصة لجنة صيانة الآداب — أن تمنعها منعا باتا ، وأن تحرم نشرها فى الصحف أو فى إعلانات الحائط أو على الشاشة البيضاء ، فانها ذات أثر وخيم .

كما يجب القيام بحملة واسعة النطاق لمقاومة هذه العادة الشائنة المخربة اقتصاديا وصحيا واجتماعيا ، فالمرأة يجب أن تكون " فرملة " المجتمع بما فى طبيعتها من المحافظة والاقتصاد ورعاية شؤون النشء الصغير ، ولا يجوز أن تكون هى عاملا من عوامل التبذير والقدوة السيئة للجيل المقبل بنين وبنات .

ولا يغر الفتيات فتوتهن وقدرتهن الآن فى سن الشباب على الاحتمال ، و إنه ليكفى أن تنظر الواحدة منهن إلى شيخ يحشرج ويسعل من آثار التدخين لتبدو لهن الصورة المخيفة القذرة التى تنتظرهن بمجرد ضعف فتوتهن عن احتمال آثار النيكوتين .

و إن " رابطة مكافحة التدخين " لتستطيع أن تستعين على هذه الوافدة بالصور الرمزية للسيدات اللاتى فعل بهن التدخين فعلته وترك فيهن آثاره ، وهن يسعلن ويحشرجن من أثر العادة الوبيلة .

وليس أخوف من المرأة على أناقتها وصحتها ، و إننا لنعجب كيف استطاعت فتنة مودة أن تلهيها عن المصير المحزن الذى ينتظرها من وراء هذه العادة المحطمة متى تقدمت بها السنون؟

ملاحظات عابرة :

أحاديث السهرة	مكتبة البيت	الصداقة العائلية

(١)

فى أكثر البيوت حجرة للاستقبال ، وحجرة للنوم ، وحجرة للمائدة ، وحجرة للطبخ . ولكن فى أقلها حجرة للمكتبة ! وهذا يصور مدى اهتمامنا بالغذاء الروحى ، والمظهر الروحى ، والمتاع الروحى .

على أن المكتبة إذا وجدت فى المنزل كانت — فى الغالب — خاصة برب البيت أو لكبار المتعلمين فيه ، فهى ليست " مكتبة البيت " التى نعنيها ، لأنها ليست للجميع ، وليست وسيلة لتثقيف الجميع .

ولقد عرفت من تجربتى الشخصية أن " مكتبة البيت " تساوى مدرسة بل جامعة ، إذا هى كانت مباحة لكل فرد فى البيت ، وإذا اختيرت مؤلفاتها بحيث يجد فيها كل فرد فى البيت مادة غذاء ووسيلة متاع .

ووجود الكتب المناسبة فى متناول الجميع ، وشعور كل فرد بأنه صاحب حق فى الانتفاع بها كما يريد وإحساسه بأنه تبعا لذلك مسئول عن صيانتها ، والاحتفاظ بنظامها ، كل أولئك يخلق فى البيت روحا جديدة ، وصلات جديدة ، ويمنحه ميزات ليست للبيوت الخالية من المكتبات .

ولكن مكتبة البيت يجب أن تكون وسيلة للثقافة لا وسيلة للتسلية فحسب ، فيجب أن تختار كتبها اختيارا دقيقا ، فتبعد عنها الكتب الرخيصة والمسيئة ، وفى الوقت نفسه تحتوى أقسامها على مختلف أنواع الثقافة فى درجات متناسبة ، إذا كانت ثقافة أهل البيت وأعمارهم متفاوتة كما هو المعتاد .

فالقصة والسيرة والتاريخ والاجتماع والأدب والعلم والفلسفة ، وسائر ألوان المعرفة يجب أن تكون ممثلة بالقدر الذى يمثل أذواق الجميع وعقليات الجميع واتجاهات الجميع ، حتى يجد كل فرد منه ما يناسبه وما يهواه .

وإنه لعجيب أن تراعى ميول الجميع فيما يقدم لهم من طعام البطون ، ولا تراعى ميولهم كذلك فيما يقدم من طعام العقول وغذاء النفوس .

ونحن نشكو الفراغ، ونسعى بكل وسيلة لقتل الوقت، ومكتبة البيت حين يتوافر لها التنظيم والتنسيق، ويجتمع لها الشويق والتجديد، تكفينا مئونة الفراغ، وتريحنا من "معركة قتل الوقت"، وتضيف إلى أعمارنا أعمارا جديدة، وتهبنا ألوانا متعددة من الحياة والجمال.

إن الذين لا يقرأون لا يعيشون إلا أعمارهم القصيرة فى محيطهم المحدود، أما الذين يقرأون فيعيشون أعمار المؤلفين وحياتهم النفسية والعقلية، فى محيطات واسعة، وآفاق مديدة. والبيت مكان الحياة المحدود، والمكتبة وسيلة الحياة فى ذلك المكان المحدود.

(٢)

ولا تنقص بيوتنا "مكتبة البيت" وحدها، بل ينقصها كذلك حديث السهرة. فنحن مشغولون عن سهراتنا المنزلية بسهرات أخرى أشدها براءة سهرات القهوة، تلك السهرات التى نقضيها بين زملاء نحن معهم طول النهار غالبا، فلا يكفينا النهار حتى نلحق به الليل، وزوجاتنا وأولادنا فى البيوت منفردون!

إن هذه الحال تجعل البيوت موحشة كئيبة، وتحيل الحياة العائلية ظلا باهتا لا حيوية فيه ولا جمال.

وقد يظن أن جهل المرأة المصرية وتخلفها هو الدافع على هذه العزلة بين الزوجين، ولكن الواقع غير ذلك، والدوافع على هذه العزلة كامنة فى التباعد أكثر من كمونها فى اختلاف الدرجة العلمية. فنحن نشاهد هذه الظاهرة بين الزوجين الجاهلين، وبين الزوجين المتعلمين سواء بسواء، اللهم إلا الشذوذ النادر الذى لا يبنى عليه النظريات.

والمسألة إذن فى حاجة إلى علاج من الأساس لتغيير هذه التقاليد المؤذية التى تحرم الأسرة أهم معانى الأسرة وهو التفاهم والاجتماع.

وحديث الموقد مشهور فى البيت الانجليزى وفى الأدب الانجليزى، وللموقد هناك لضرورته التى خلقها الجو، ثمرت تلك التقاليد الاجتماعية الحميدة.

وإذا لم يكن لنا موقد فإن لنا سهرة تناسب جو بلادنا، فيجب أن يكون لهذه السهرة أحاديث، تترك طابعها فى حياتنا المنزلية وحياتنا الأدبية كذلك.

ومما لا شك فيه أن لهذه الأحاديث حين تدخل فى تقاليدنا أثرها الجميل فى تقريب الأحاسيس والأمزجة والعقليات بين جميع أفراد الأسرة، وفى إيجاد جو روحى لطيف بين هؤلاء الذين يعيشون فى مكان واحد، ويتجهون فى الحياة وجهة واحدة.

ولعل وجود " مكتبة البيت " التى أسلفنا الحديث عنها يمهد لهذه السهرات المنزلية اللطيفة ، ويخلق لها موضوعات تتناولها ، وجوا تعيش فيه ، ويرفع مستواها عن مجرد القيل والقال ، ويبعدها عن المماحكات الشخصية التى كثيرا ما تؤدى إلى النزاع ، ويوسع مجالها حتى تتناول الشؤون العامة ومسائل الحياة .

(٣)

ومكتبة البيت وأحاديث السهرة دعامتان قويتان لبناء الصداقة العائلية المفقودة فى البيت المصرى إلا فى النادر القليل .

فالبيت المصرى أشبه بالمطعم أو الفندق ، كل قيمته هى تناول الغذاء ، وتنظيف الثياب ثم النوم فى نهاية المطاف !

أما روح الصداقة التى يجب أن تسود أفراده ، وتربط بينهم برباط وثيق من التآلف والتعارف والتفاهم ، فهى روح مفقودة أو كالمفقودة مع الأسف الشديد .

للأب مشاغله وهمومه النفسية التى لا يبثها لأحد ولا يعنى بها أحد ، وللأم مشاغلها المنزلية أو الخاصة وهى وقف عليها لا يقاسمها أحد فيها ، ولكل ولد من لأولاد دروسه ومشاكله الخاصة التى قلما يعتنى بها أحد إلا بالأوامر والتهديدات !

وبعض الأبناء لا يراهم آباؤهم ولا يرون أبناءهم إلا فى عطلة الأسبوع ، وبعض الأزواج لا يجتمعون بزوجاتهم إلا على مائدة الطعام !

والحياة المصرية نظرا لهذا كله حياة جافة لا تنديها الصداقة العائلية الجميلة التى تظلل الجميع وتربط بين الجميع ، وتجعل من هموم كل فرد و شاغله هموما ومشاغل للجمع .

والصداقة العائلية لا تخلق خلقا ، ولا ترتجل ارتجالا ، إنما تتكون شيئا فشيئا من التحية اليومية ، والابتسامة المتبادلة ، والمجاملة الشخصية ، والتسامح العام ، والاهتمام المشترك . ثم تتألف شيئا فشيئا من الاشتراك فى تصريف الحياة ، والمناقشة فى بعض مسائل الفكر والمعرفة ، والتعليق على الحوادث والأخبار ، والنزهات المشتركة والألعاب الجماعية ، ووسائل التسلية والأحاديث .

وما أحوج الأولاد فى سن الطفولة وفى سن المراهقة إلى هذه الصداقة العائلية ، التى تساعدهم فى تحقيق رغائبهم وفى حل مشاكلهم ، وفى إشعارهم بأنهم لا يعيشون وحدهم فى هذه الحياة .

ثم هى فى الوقت ذاته مرانة عملية على الحياة الاجتماعية ، التى نشكو من تفككها فى المجتمع ، وهى خليقة بأن تتفكك مادامت بيوتنا غير متماسكة الأواصر بين الآباء والأمهات والأبناء .

تمثيلية اجتماعية

الوطن . . .

تقع حوادث هذه المسرحية فى بلجيكا فى الوقت الذى كانت فيه أسبانيا محتلها بجنودها وتذيق أهلها من صنوف العذيب والاضطهاد ألوانا على أيدى محاكم التفتيش ، فأهلها فى رعب دائم . يقبض على الواحد منهم لمجرد الاشتباه أو لوشاية كذوب . وهكذا كان الحال مع المركيز دولاتريموى والكونت دوريزور ، فالأول أحد أمناء الملك شارل ملك فرنسا وقع أسيرا فى يد الأسبان بينما كان يحارب إلى جانب صديقه الأمير تاسو شقيق أمير أورانج أحكم وأشجع مواطنى بلجيكا ، فباعه الجند إلى الدوق البا الأسبانى حاكم المدينة ، ففرض عليه هذا فدية قدرها مائة ألف جنيه ، طلبها المركيز من أخيه المقيم فى فرنسا ليدفعها للدوق البا ، وقد أذن له الدوق بالتجوّل فى أنحاء بروكسل حتى يدفع الفدية على ألا يتجاوز الحدود ، وفيما هو يتجوّل فى المدينة ليتفرج على حفلات الكرنفال قبض عليه الجند لاشتباههم فى أمره .

أما الثانى فقد كان أحد الزعماء أيام الوصية الحاكمة قبل احتلال الأسبان لبلجيكا ، قبض عليه بتهمة تنحيه عن بروكسل أربعة أيام والمظنون أنه قابل فيها البرنس دورانج الثائر .

يبدأ الفصل الأول حيث تنعقد المحكمة المؤلفة من ضباط الاحتلال وتبدأ فى محاكمة المقبوض عليهم . فهذا يحكم عليه بالشنق لأنه بروتستانتى على خلاف مذهب الأسبان ، وذاك غلام فى الرابعة عشرة من عمره يحكم عليه بالإعدام لأنه لم يرفع قبعته عند مرور الموكب الدينى . وهكذا تستمر المحكمة فى إصدار أحكامها المستبدة وقلما تغير النطق بلفظ "الإعدام" .

ثم يأتى دور الكونت دوريزور ، فيوجه إليه الرئيس الاتهام فينفيه ، ويواجهه بشهادة الشهود فيكذبها ، وأخيرا يستقر الرأى بعد مناقشة عقيمة على أخذ شهادة الضابط المقيم فى بيت الكونت فإذا لم تثبت شهادة الضابط ان الكونت كان فى منزله الليلة الماضية ، فيكون ذلك دليلا على تغيبه عن المنزل ومن ثم يستجوب عن باقى الاتهام . يستسلم الكونت ويتراجع إلى جانب زميله المركيز دى لاتريموى ، فيسر إليه أن التهمة ثابتة عليه وأنه لن يعيش أكثر من ربع ساعة حتى يؤدى الضابط شهادته . وقد أراد أن يكتسب هذه الدقائق ليحمله رسالة لزوجته الكونتس دوريزور التى يحبها والتى لا يخاف من الموت

إلا لأنه يحرمه حبها و يفرقه عنها ، وهو لا يعتبر نفسه جبانا إذا أرسل دمعة على سعادته الزائلة ، فيعده المركيز بتبليغ رسالته ، و يكون الضابط اللاجئ بمنزل الكونت قد حضر لتأدية الشهادة . وبعد مناقشة قصيرة يقول إنه واثق من رؤيته للكونت الليلة الماضية ! فيقول له المحقق :

— فكر جيدا . هل رأيت حقا الكونت ريزور ؟

— أجل . . . فقد تبارزت معه . (فيدهش الكونت نفسه بينما الضابط يسترسل قائلا) : هذه الليلة كنت عائدا إلى المنزل وكان الظلام دامسا .. . فصعدت السلم متلمسا الدرجات بطرف سيفي . . . ولسوء الحظ برز من الدور الأسفل شخص مسرع من غرفة الكونت تضيء له سيدة . . . فصحت به من يكون . . . فقال لى : ومن أنت حتى تسألنى إذا كان يجوز لى أن أخرج من غرفتى . . . فرفعت سيفي فى وجهه . . . لكنه انتزعه منى وألق به أسفل السلم . . . وقد أسفت بعد ذلك على ما بدر منى أسفا شديدا .

يلتفت المحقق إلى الكونت المذهول ليسأل عن صحة القصة ، فيجيبه بشرود إنها صحيحة . فيحكم بالبراءة مع الإنذار . يفرح لذلك المركيز دو لاتريموى الذى لفت بحركاته أنظار المحكمة ، فيسأله عن اسمه فيقوله بعد برهة . فلا يجرأ أحد على إيذاء أسير الحاكم الذى يساوى مائة ألف جنيه يخرج مع هيئة المحكمة ويظل الكونت والضابط . و بينما الضابط يهم بالخروج يلتفت إليه ريزور قائلا بقلق شديد :

— لقد أنقذت حياتى يا سيدى . . . ولكن ما هى الحقيقة . . . إن شهادتك لم تطابق الواقع .

— انا لم أذكر غير الواقع يا سيدى .

— عفوا يا سيدى . ألا يمكن أن يكون الشراب قد أثر فيك فتخيلت ما قلت ؟

يثور الضابط و يرمى الكونت بأنه يهزأ به و يقول : إنه قد رأى ما أنضى به رأى العين وكأنما هو يسمعه وهو يقول : ادخلى يا سيدتى . . . وحاذرى . ثم يقول إن الكونتس أقفلت الباب بعد ذلك بسرعة . ثم رددا ما ردداه . يصمت الكونت فيسأله الضابط عن يده . فيقول له الكونت : وما شأن يدى . فيرد عليه بأنها قد جرحت جرحا عميقا عند ما كان ينتزع منه السيف وأن الكونت صرخ متألما . . . وقد وجد الضابط فى الصباح أثر دماء على السيف . ثم يقول وقد فاتنى أن أستشهد بهذا فى التحقيق و يشير إلى يد الكونت المكسوة بالقفاز . يسكت الكونت أمام هذه الأدلة الصريحة فينبهه الضابط إلى وجوب الإياب إلى المنزل قائلا : لقد انتهى عذابك .

و بعد أن يذهب الضابط يقول الكونت : انتهى عذابى . . . لم ينته عذابى . . . بل قد ابتدأ .

وفى الفصل الثانى تبدو إحدى قاعات منزل الكونت دى ريزور ترى الكونتس الشابة تستقبل الكونت كارلو صديق زوجها الحميم . فتسأله عن جرح يده فيجيبها نه بسيط لا يلبث أن يلتئم ، فتسأله عن سر اضطرابه فيخبرها أن زوجها قد عاد من سفره، فتبدى استياءها من هذا الخبر . ويدور الحوار حول علاقتهما الآثمة فيبدى لها كارلو استياءه من علاقتهما فتقول له دولوريس : ولماذا ؟ أى ألم تحمله أنت ؟ "إنى فى سبيل حبك أتعذب فى الدنيا وأهيئ نفسى لعذاب الآخرة" . فيرد عليها بأنه قد ضحى بأعظم وأقدس شىء عنده . . . بشرفه . . . براحة ضميره . . . بعزة نفسه . . . فهو يشعر بالنار تتأجج بين ضلوعه . وقودها احتقاره لنفسه الذى يتعبه أينما كان . ويقول لها إنه وهو أصدق أصدقاء زوجها وأول من يفدى شرفه بحياته . يخونه فى عرضه ويخدعه ويسرقه .

وبينما هم فى هذا الحديث إذ يدخل الخادم ويعلن أن الكونت قد قبض عليه ، فيهم كارلو بالخروج فتسأله الكونتس إلى أين ؟ فيقول لكى يحاول إنقاذ صديقه قبل أن يقتلوه، فتقول له أتذهب لإنقاذ غريمك ؟ فيرد عليها بأنه ليس غريمه وإنما هو رجل شريف يجب إنقاذه ... ويقوم بواجبه نحوه. تسخر منه قائلة : إذن أنقذه . . . وعد به إلى البيت لكى أخونه غدا معك . . . وأجمل من ذلك أن أخونك معه هذا المساء . فيقول لها : أنت شيطان وإذا بالخادم يدخل معلنا بفرح حضور الكونت .

يدخل الكونت فيقابله كارلو بفرح صادق وتتقدم إليه زوجته مهنئة بفتور فيلاحظ زوجها عليها أنها ترتعد فيسألها السبب فتقول له إنه التأثر ، وتخرج تأمر بإعداد العشاء . يخلو الكونت إلى صديقه فيتفقان على تدبير الخطة المتفق عليها بينهم ، وهو أن يتسلل البرنس دورانج تحت جنح الظلام بعد أن يجتاز السلالم المنصوبة حول المدينة فيتعهد كارلو بالتحايل على الحاكم لرفعها متحججا بنقل أسلحة لفرقته . ويتواعدان على اللقاء فى المساء ويخرج كارلو وهو يشد على يد صديقه . وبعد برهة تدخل دولوريس فيتهز زوجها الفرصة ويفاتحها فى أمر مرأى رجل غريب يخرج من غرفتها الليلة الماضية . فتنكر فيصر على اتهامها فيزل لسانها وتنكشف الحقيقة فتعترف مكرهة ويطلب منه أن يقتلها فهى تكرهه وترغم نفسها على قبول مداعباته لها ومجاملته، فيرد عليها قائلا بأنه لم يكن ينتظر أن يقابل جميله الذى صنعه فيها بالإساءة، فقد قدم لها قلبه وهى الفتاة اليتيمة الطيبة مع ثروته ومركزه ولقبه وانتشلها من أقذر حى فى المدينة وهى لا تكاد تجد ما تسد به الرمق، ولا تملك من حطام الدنيا سوى سرير أمها الذى ماتت عليه من البؤس والفاقة . أبعد هذا تستحق منها كل هذا الجحود وهذا الكره ؟ ! وتعترف له وهى شامخة الرأس . فتقول له إنه لم يحبها الحب الكافى ، الحب الذى ترغبه ، فقد وجه كل عاطفته لما يسميه بالوطن ، أما هى فلم تلق منه إلا الإهمال ، فحبه الجنونى لوطنه حرمها الحب والعطف، وهى ترى أن الوطن الحقيقى عندها هو الحب

فلو كان قد بذل فى سبيل حبها ما بذله فى سبيل وطنه لما وصلا إلى ما هما فيه . فيحاول أن يضطرها إلى أن تعترف باسم عشيقها فترفض . ولكنه يخبرها أنه سوف يبحث عنه ويقتله ويكفيه أن يعرفه بالجرح الذى أحدثه السيف فى يده ويخرج ولكن تقول : كلا لن تقتله (وتأخذ ردا ها وتخرج) .

وفى الفصل الثالث نحن فى غرفة الدوق ألبا الحاكم الأسبانى لمدينة بروكسل وهو يعطى كل اهتمامه لابنته رفائيل المريضة ولا يهمه فى الدنيا شىء أكثر من إسعادها وإبرائها من علتها . تدخل عليه فيفرح بمرآها ويبدى لها أمله فى شفائها وبينما هو يداعب ابنته إذ يعلن أحد المساعدين حضور قائد فرقة الأعيان الكونت كارلو فيغضب لقطع خلوته العائلية عليه ولكن يأمر بإدخاله، فيلاحظ الحاكم أن الكونت لا يزال يحمل سيفه فيجرده منه لأن فرقته قد ألغيت ويقول له : لماذا أتيت؟ فيقول كارلو إنه إنما أتى لينفذ أمر الحاكم بجمع أسلحة المدينة وتسليمها له وإلا عوقب بالقتل ، وهو لن يستطيع أن يؤدى ما يطلب منه فينقل ثمانمائة درع وخوذ بينما السلاسل تعترض طريقه ، ولذلك فهو يطلب أن ترفع السلاسل فى المساء من جميع طرق البلدية فيوافق الحاكم أخيرا ويعيد اليه سيفه تحت إلحاح ابنته التى تخبره بأن هذا الضابط قد دفع عنها ذات يوم اعتداء الجمهور عليها فى الطريق. ويعرض عليه أن يلحقه بضباط الحرس الأسبانى فيرفض ويعيد سيفه ثانيا الى الحاكم ويقول له انظر سعادتك جيدا الى السيف إنه سلاح قوى يحمى الوطن ويذود عن المواطنين وهو لا ينسل من غمده إلا ليقوم بواجبه المجيد ولكنه يأبى أن يستخدم فى استعباد الشعوب وهو لا يطاوعنى على هذا بل يخترق صدرى (ويلقى بالسيف على المائدة) فيغضب الحاكم ولكنه يكظم غضبه تحت إلحاح ابنته ويوافق فى النهاية على انزل السلاسل . ويخرج كارلو .

يدخل على الحاكم بعد ذلك دولوريس الكونتس ريزور وتكون رفائيل قد خرجت وتقول له إنها اكتشفت مؤامرة يدبرها رجل تبغضه وهذا الرجل يبغى قتل عشيقها وقد تبعت هذا الرجل هذا المساء إذ رأته يتسلل ليلا رغم الأوامر العسكرية فوجدته قد اجتمع بعشرين رجلا فى قبو وبين هؤلاء الرجال البرنس دورانج . فيكذبها ولكنها تؤكد له أنها سمعت بأذنها الخطة التى ينوون تنفيذها وهى هجوم البرنس دورانج بستة آلاف رجل مسلحين عند سماعهم دق جرس الكنيسة الكبير ويكون واحد منهم قد احتال على رفع السلاسل . وتفضى اليهم ببعض أسماء المتآمرين ولكنها تطلب من الحاكم أن يعفو عن حبيبها ويقتل الجميع ولكنه يخرج ويغادرها بحجة أشبه بالمجانين .

فى ذاك الوقت يكون المتآمرون قد بدأوا فى تنفيذ خطتهم فى دار البلدية وقد تبادلوا مع سكان المدينة الاشارات علامة الاستعداد . ينفرد كارلو بالكونت ريزور ويمنيان أنفسهما بالنصر ويهنئان بعضهما بالمعركة فيلاحظ ريزور أن كارلو لا يحمل سيفه فيناوله سيفا من على المنضدة فيمد كارلو يده العارية من القفاز ليتناول السيف فيلاحظ ريزور الجرح

فيمسك بيد صاحبه صارخا : ماذا بك ... ما هذا الجرح ... من أين أتاك ... فيرد قائلا : من سلاح أمنته بلا حذر .

— من جندى أسبانى .

— لماذا ؟

— هذه الليلة ... فى بيتى؟ ... أيها الشقى ... هو أنت ... سارق حبى ... قاتل شرفى ... سأقتلك .

— (وهو يركع أمام صاحبه) أقتلنى إذن ... الموت من يدك أهون من العذاب الذى أنوء به ... أنا شقى ... جبان ... خائن ... نذل ... ألتمس الموت منك جاثيا على ركبتى .

ينزل ريزور سيفه وهو يقول : أيها التعس يا من أخلصت له الحب ... أهكذا تخونني من أجل امرأة ... أنت يا من أحببت ... لم أكن أعتقد إلا فى ثلاثة ... الوطن وهى وأنت ... انظر الآن ماذا تبقى لى وبسببك ... موتك ... ماذا يجدى ... موتك ؟ ... سيشبع انتقامى ... ولكن الوطن الذى يدافع عنه كلانا سيفقدك . أأحرم معركة الليلة من ساعدك القوى فى وقت يقرر فيه مصير الوطن . الوطن فى حاجة اليك ... يا إلهى لا ... لو فعلت أكون مجرما فى حق الوطن مثل إجرامك فى خيانة عرضى ... لا ليس لى الحق فى أن أسلب الوطن شجاعتك كما لم يكن لك الحق فى أن تسلبنى سعادتى .

— إذن فأنت لا تريد .

— قم وخذ هذا السيف وسر الى القتال ... أسرع حيث يدعوك الواجب وحيث يأمرنى واجبى ... وان وجب أن تموت ... فلا تمت مجرما ... مت بكندى ... مت ميتة الأبطال . ابق وانتقم لى من نفسك ... سلبت منى الشرف فأعد لى الحرية ... أخذت منى امرأة فرد لى الوطن ... سأرى بعدئذ اذا كانت بطولتك كفيلة بغسل جريمتك؟ إذا كان يجب أن أنسى حقدى عليك باعترافى لك بالجميل .

— سامحنى ... ريزور سأحملك على ذلك .

وبينما هم يتأهبون للمعركة إذ يهجم عليهم العدو خلسة . ويضطرهم الى التسليم بعد نضال أبدى فيه كارلو من البطولة ما يستحق الذكر ويعرض نفسه لاحتمال مسئولية المؤامرة ، ولكن الكونت يقدم نفسه باعتباره من مدبريها . ويحاول الحاكم إرغامهم على الاعتراف بالاشارة المتفق عليها فيرفض الجميع ولكن قارع الأجراس يبدى استعداده للاعتراف فيحذره كارلو . فيرد عليه قائلا :

لست إلا رجلا مسكينا . أيها السادة . سيفتكون بى .. ولدى امرأتى وأولادى .

فيرد عليه كارلو قائلا بتوسل ، اذكر أن ثلاثة ملايين روح بين يديك . أنقذ الوطن . ويتوسل اليه مع الكونت ريزور ولكنه يخرج ليدق الأجراس بالطريقة المرسومة تحت ضغط جنود الحاكم . بينما الثوار يبكون من الغيظ والألم .

يدق الجرس ولكن باشارة يفهم منها الأمير ألا تدخل وابتعد عن المدينة ... يفرح الجميع بينما يتميز الحاكم وجنوده من الغيظ فيطلقوا النار على قارع الأجراس ويردونه قتيلا . ثم يأمر الحاكم بنصب المشانق فى الميدان بسرعة لشنق الجميع .

واذا كان الفصل الرابع فنحن فى صالة قصر الدوق البا الحاكم بجوار محكمة الجرائم ، يرى الحاكم وهو يصدر أوامره إلى الجلاد كى يعذب الكونت دى ريزورو يفتن فى تعذيبه حتى يعترف باسم باقى الشركاء . بينما تدخل دولوريس تستنجز الحاكم وعده باطلاق سراح كارلو عشيقها فيرفض ويرميها بالنذالة والوقاحة والخيانة لزوجها فتنتهز فرصة دخول ابنة الحاكم وتحصل بفضل توسلات الابنة على جواز سفر للكابتن كارلو إلى مدينة ليل ، ويخرج الحاكم مع ابنته وتهم دولوريس بالخروج تلمح زوجها آتيا من بعيد فترتعد وتسلك طريقا غير طريقه حتى لا تراه وتخرج بينما يدخل الكونت ريزور بصحبة ضابط ليقوده إلى غرفة التعذيب الرهيبة كى يعترف ولكنه يعلم من الضابط أن صديقه المركيز ترعوى قد أعطى الضابط خنجرا يسلمه للكونت اذا احتاجه ... فيشكره الكونت شكرا مضاعفا . ويهم بالخروج واذا به يرى كارلو يدخل بين جنديين وقد اعلن أن الكابتن كارلو مطلق السراح . يفرح بذلك ريزور ولكن كارلو يقول ولماذا أنا دون باقى الرفاق ؟ فيخبرونه أن الدوق قد أمر بذلك تبعا لأمر ابنته ، فيرفض أن يطلق سراحه ويفضل أن يموت مع زملائه فيرده الكونت ريزور ويرجوه أن يطيع الأمر ويخرج فيقول له :

بحق السماء ... دعنى أموت ... دع الجلاد ينتقم لك منى ...

وإن كنت لا أريد انتقام الجلاد ؟

تمنحنى عفوك ... دون أن أستحقه ... كلا

واذا كانت غلطتك كما قلت قد ملكتنى حياتك ... فانى أملك حق العفو عنها . اذن هى ملكى ... ولست أرجو منك أن تعيش ... بل آمرك . ولكن آخريد اصافحها يد صديق ... عزيز على ... قد وجدته بعد أن كدت أفقده ... وقد طهرته دموع التوبة .

فيضغط كارلو على يد الكونت ويقبلها بينما الكونت يقول : ابق ياعزيزى كارلو لتخدم قضيتنا المقدسة ... التى هى الآن أحوج ما تكون لاخلاصك ... ليكن حب الوطن من الآن شاغلك الوحيد ... هذا الحب الذى جمع بين رجلين كان قد فرق بينهما عداء قاتل ... أنت لا تزال شابا ، وسترى علم الوطن يرفرف فوق أسوارنا فتذكر زميلك الذى حارب الى جانبك . فقط أريد منك شيئا واحدا أن تحمل عنى واجبا مقدسا . وهو أن تبحث عمن خاننا وتاجر

بوطنه . وعندما تقبض عليه كائنا من كان اضربه، اسحقه دون ما شفقة ولا رحمة ... اقسم بالله . فيقسم. فيكرر عليه : كائنا من كان . فيردد : كائنا من كان .فيقول الكونت : أرأيت كيف أنا محق في الإبقاء على حياتك ... ويتصافحان بعضهما ويخرج الكونت بصحبة الضابط وبعد برهة يرجع الضابط وحده و يقول لقد اعترف الكونت...فيسأله كارلو بلهفة : ماذا قال؟ فيقول قالها كلمة واحدة «الوطن» واغمد هذا الخنجر في قلبه ومات . فيشحب لون كارلو ويلجم الحزن لسانه ويستأذن الضابط في أخذ الخنجر الذى قتل به صديقه فيعطونه اياه . و يأخذه ويخرج .

وفي الفصل الاخير نرى دولوريس تجلس بجوار النافذة بينما يدخل كارلو فتهش للقاه وتفرح بمرآه وتتغزل فيه . فيلومها على قولها هذا في مثل هذه الظروف و يخبرها بموت زوجها فتتألم قليلا ثم لا تلبث أن ترجع الى جنونها بكارلو. فيقول لها : ألا تنصتين إلى حدث الحارق في الشوارع ؟ فلا تأبه بذلك . وتقول له : وماذا في ذلك تعال إلى جانبي . فيقول لها : إن على واجبا وعدت به الراحل وهو أن أقتل من خاننا . تصعق وتقول له أنت تقترف جريمة القتل عمدا ... لا أنا لا أصدق ... لا تفكر إلا في أنا ... هيا نذهب من هنا وعندى جواز سفرى وعندك جواز سفرك ، وقد أخذت جوازى في قصر الحاكم هذا الصباح . فيتراجع صائحا : يا الهى أنت ... أنت من أضاعنا ... هي أنت ... أيتها المخلوقة اللعينة ... يا الهى المنتقم أبحث عنها وهى أمامى ؟ ويسحبها الى النافذة لتريها فعلتها الشنيعة ... و يقول لها : انظرى إلى محرقتك الملتهبة ... عدّى ضحاياك ... تعودى حر اللهيب...اسمعى لقد رأوني انهم يقولون ... كارلو الخائن ... الخائن ... اسمعى صوت المائت يصيح بى لا تنس القسم اضرب أيا كان المجرم...ويهجم عليها و يغمد في صدرها الخنجر بينما هي تولول بجنون وفزع، وتقع وهى تهتف باسمه .. وتدعوه أن يموت معها... فيقول لها...سألحق بك ... انتظريني... أنا ذاهب ... (ويعتلى النافذة و يصيح في الشارع) أيها الجلاد ينقصك واحد من ضحاياك ... افسح مكانا في محرقتك ... افسح لى مكانا بينهم (و يقفز من النافذة الى الساحة) بينما تسلم دولوريس أنفاسها الأخيرة م؟

سمـــير

تم طبع هذه المجلة بالمطبعة الأميرية ببولاق
في ٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٦٢
(٢٧ مارس سنة ١٩٤٣) م؟
مدير المطبعة الأميرية
صحت بكرى

المطبعة الأميرية ١٢٢٥٩ ١٩٤٣ ٣٥٠٠